
قصص وحكايات...
من استجيب دعاؤهم
لفضيلة الشيخ
الدكتور محمد الاخرس
حفظه الله


بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين

لَهُ النِّعْمَةُ وَلَهُ الفَضْلُ وَلَهُ الثَّنَاءُ الحَسَن، والصَّلاةُ والسَّلامُ الأَتمانِ الأَكْمَلانِ عَلَى سَيِّدِنَا محمَّدٍ وَعَلَى ءالِهِ وَأَصْحَابِهِ الطَّيِّبِينَ الطَّاهِرِين. أما بعدُ فإنَّ الدعاءَ نعمةٌ كبرى، ومِنحةٌ جُلَّى، جادَ بها ربُّنا جلَّ وعلا حيثُ أمرنا بالدعاءِ، ووعدَنا بالإجابةِ والإثابةِ.

فشأنُ الدعاءِ عظيمٌ، ونفعُهُ عَمِيمٌ ومنـزلتُهُ عاليةٌ في الدينِ، ولهُ فضائلُ عديدةٌ وثمراتٌ جليلةٌ فما اسْتُجْلِبَتِ النِّعَمُ بمثلِهِ، ولا استُدْفِعَتِ النِّقَمُ بمثلِهِ، ذلكَ أنَّهُ يَتضمَّنُ توحيدَ اللهِ وإفرادَهُ بالعبادةِ دونَ مَنْ سِواهُ لأنَّ العبدَ عندما يَدعو اللهَ تعالى راغبًا إليهِ حيثُ إنَّهُ خالقُ المنفعةِ والمضَرَّةِ فقد تذلَّلَ لهُ غايةَ التذلُّلِ. فما أشدَّ حاجتَنا إلى الدعاءِ، بل ما أعظمَ ضرورتَنا إليهِ.

لقد خلقَنا اللهُ تباركَ وتعالى لهدفٍ عظيمٍ وأمرٍ جسيمٍ، ألا وهو تحقيقُ العبوديةِ لهُ سبحانَهُ، يقولُ اللهُ تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ٥٦ ﴾ الذاريات. معناهُ إلا لآمُرَهُم بعبادَتي. فمَن الذي خلقَكُم غيرُ اللهِ؟!

ومَنْ الذي رزقَكُمْ غيرُ اللهِ؟! ومَنْ الذي يَكْلَؤُكُم - يَحْرُسُكُمْ ويَحْفَظُكُمْ - بالليلِ والنهارِ غيرُ اللهِ؟! فاللهُ هو الذي يُقْصَدُ عندَ الشِّدَّةِ بجَميعِ أنْواعِها ولا يَجتَلِبُ بخَلْقِه نَفْعًا منهم لِنَفْسِه ولا يَدْفَعُ ضررًا بهِم عَنْ نَفْسِهِ فَهُمْ لا يَنْفَعُونَهُ ولا يَضُرُّونَهُ.

وللدعاءِ فضائلُ عَظِيمةٌ وثَمَراتٌ جَليلةٌ فمِنْ ذلكَ أنَّ الدعاءَ طاعةٌ للهِ تعالى وامتثالٌ لأمرِهِ عَزَّ وجَلَّ، فقد أمرَ بذلك عبادَهُ بأنْ يَدْعُوهُ ويَطْلُبوا منهُ حوائِجَهم ويَسْأَلُوهُ مقاصِدَهم، وَوَعَدَهُم أنْ يُجيبَهُم ويُعْطِيَهُم سُؤْلَهُم ويَدْفَعَ عنهُم ما يَضُرُّهم، قالَ اللهُ تعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ٦٠ ﴾ غافر.

وقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «الدعاءُ هُوَ العبادةُ» بمعنى ما يُتَقَرَّبُ بِهِ إلى اللهِ، لأنَّ الصلاةَ التي هي أفضلُ ما يُتَقَرَّبُ بِهِ إلى اللهِ بعدَ الإيمانِ باللهِ ورسولِهِ مُشْتَمِلَةٌ على الدعاءِ. ثم قَرَأَ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ٦٠﴾ غافر رواهُ ابنُ حبانَ وغيرُهُ.

والدعاءُ سببٌ عظيمٌ لانشراحِ الصدرِ وتفريجِ الهمومِ وزوالِ الغمومِ وتيسيرِ الأُمورِ، فقد دخَلَ النبيُّ ﷺ المسجدَ ذاتَ يومٍ فرأى فيهِ رجلا مِنَ الأنصارِ يُقالُ لَهُ: أبو أُمامةَ، فقالَ النبيُّ ﷺ: «ما لي أَراكَ جالِسًا في المسجدِ في غيرِ وقتِ الصلاةِ؟» قالَ: همومٌ لزمتني وديونٌ أثقلتني يا رسولَ اللهِ، فقالَ: «أفلا أُعَلِّمُكَ كلامًا إذا قُلْتَهُ أذهبَ اللهُ همَّكَ وقضى دَيْنَكَ؟» قُلتُ: بلى يا رسولَ اللهِ، قالَ: قُلْ إذا أَصْبَحْتَ وإذا أَمْسَيْتَ: «اللهُمَّ إِنّي أَعوذُ بِكَ مِنَ الهَمِّ والحَزَنِ، وأَعوذُ بِكَ مِنَ العَجْزِ والكَسَلِ، وأَعوذُ بِكَ مِنَ الجُبْنِ والبُخْلِ، وأَعوذُ بِكَ مِنْ غَلَبَةِ الدَّينِ وقَهرِ الرجالِ»، قالَ: ففعلتُ ذلكَ فأذهَبَ اللهُ همِّي وغَمِّي وقَضَى دينِي» رواهُ أبو داودَ.

لذا أَحبَبْتُ أنْ نَقِفَ وَقْفَةً صادِقةً نتأَمَّلُ في هذِه القصصِ المؤثرةِ التي ذُكِرَتْ لكُمْ عَنِ اسْتَجابةِ الدعاءِ، فقد كَتَبْتُها لي ولكُمْ لِلْعِظَةِ وَأَخْذِ العِبْرَةِ... فالسعيدُ مَنِ اتَّعَظَ بغيرِهِ واستَغَلَّ أيامَ عُمُرِهِ.

اللَّهُمَّ أَصْلِحْ لِي دِينِي الَّذِي هُوَ عِصْمَةُ أَمْرِي،
وَأَصْلِحْ لِي دُنْيَايَ الَّتِي فِيهَا مَعَاشِي،
وَأَصْلِحْ لِي ءَاخِرَتِي الَّتِي فِيهَا مَعَادِي،
وَاجْعَلِ الْحَيَاةَ زِيَادَةً لِي فِي كُلِّ خَيْرٍ،
وَاجْعَلِ الْمَوْتَ رَاحَةً لِي مِنْ كُلِّ شَرٍ

قلوبُهُم
ماتَتْ بعشَرَةِ أشياءَ

مَرَّ إبراهيمُ بنُ أدهمَ - رحمَهُ اللهُ - بسوقِ البصرةِ فاجتمعَ الناسُ إليهِ، وقالوا: يا أبا إسحاقَ إنَّ اللهَ تعالى يقولُ ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴿٦٠﴾ ﴾ غافر. ونحنُ ندعُو فلا يُستجابُ لنا؟ قالَ: «لأنَّ قلوبَكُم ماتَتْ بعشرةِ أشياءَ» قالوا : وما هي ؟!

قالَ:

الأولُ أَنَّكُم عرفتُمُ اللهَ فلم تُؤَدُّوا حقَّهُ.

الثاني ادعَيْتُم حُبَّ النبيِّ ﷺ ولم تعْمَلُوا بِسُنَّتِهِ.

الثالثُ قرأتُمُ القرءانَ، ولم تعمَلُوا بِهِ.

الرابعُ أكلتُم نعمةَ اللهِ، ولم تُؤَدُّوا شكرَها.

الخامسُ قلتُمْ إنَّ الشيطانَ عدوُّكُم، ووَافَقْتُمُوهُ.

السادسُ قلتُمْ إنَّكم مُشْتاقُونَ للجنةِ، فلم تعْمَلُوا لها.

السابعُ قلتُمْ إنَّكم تَخافُونَ مِنَ النارِ، فلم تَهْرُبُوا مِنْهَا .

الثامنُ قُلْتُمْ إنَّ الموتَ حقٌّ، ولم تَسْتَعِدُّوا لَهُ.

التاسعُ اشْتَغَلْتُمْ بعيوبِ الناسِ، ونَسِيتُمْ عُيوبَكُم.

العاشرُ دفنْتُمْ مَوْتاكُم، ولم تَعْتَبِرُوا بهم.

رواهُ أبو نُعَيمٍ في كتابِ حليةِ الأولياءِ -8/15 والغزاليُّ في إحياءِ علومِ الدينِ 3/38

قالَ بعضُ أهلِ العلمِ في جوابِ مَنْ قالَ إنَّ كثيرًا مِنْ دَعَواتِ الناسِ أو أكثرَها لا تَتَحَقَّقُ بها مطالبُهُم: إنَّ مَنْ كانَ دعاؤُهُ بغيرِ إثمٍ ولا مانعٍ شرعيّ لا بدَّ أنْ ينالَ تلكَ المطالبَ بدعائِهِ، أو يُصْرَفَ عنهُ مِنَ السوءِ مثلُها، أو يُدَّخَرَ لَهُ في الآخرةِ فكلُّ ذلكَ استجابةٌ، إنْ أعطاهُ اللهُ ما طلبَهُ الآنَ استجابَ لهُ، وإنْ صَرَفَ عنهُ من السوءِ استُجِيبَ لَهُ، وإلا ادُّخِرَ لَهُ في الآخرةِ فلم يَخْرُجْ صِفْرَ اليدَينِ مِنْ كُلّ وجهٍ.

فاللهُ تعالى يُجيبُ الدّعواتِ ويقضِي الحاجاتِ.

اللـهُ يَـجْعَلُنَا
مِـمَّنْ يَسْمَعُونَ القَوْلَ
وَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ

اسمُ اللهِ الأعظمُ
الذي إذا دُعِيَ بهِ أجابَ

روي في سببِ توبةِ الإمامِ الزاهدِ «إبراهيمَ بنِ أدهمَ» رضيَ اللهُ عنهُ الذي كانَ من أبناءِ الملوكِ أنَّهُ قالَ: «كنتُ شابًا قد حُبِّبَ إليَّ الصيدُ، فخرجتُ يومًا أتتبَّعُ صيدًا، وبينما أنا أطاردهُ إذْ سمعتُ صوتًا ، هتف بي هاتف يقولُ: «يا إبراهيمُ ألهذا خُلِقْتَ، أبهذا أُمِرْتَ؟».

ففزِعْتُ ووقفتُ ثم تعوَّذتُ باللهِ، وركضتِ الدابةُ، فتكرَّرَ الأمرُ مرارًا ثم هتفَ بي هاتفٌ من تحتِ السَّرْجِ يقولُ: «واللهِ ما لهذا خُلقتَ ولا بهذا أُمرتَ».

فنزلتُ فصادفتُ راعيًا لأبي يرعى الغنمَ، فأخذتُ جُبَّتَهُ وكانت من صوفٍ فلبستُها وأعطيتُه الفرسَ وما كانَ معي، وتوجَّهتُ إلى مكةَ، فبينما أنا في الباديةِ إذ أنا برجلٍ يسيرُ ليس مَعَه إناءٌ ولا زادٌ، فلما دخلَ المساءُ وصلَّى المغربَ حرَّكَ شفتيهِ بكلامٍ لم أسمعْه، فإذا أنا بإناءٍ فيه طعامٌ لذيذٌ وإناءٍ فيه شرابٌ منعشٌ، فأكلتُ مَعَه وشربتُ، وكنتُ على هذا أيامًا، وعلَّمَني اسمَ اللهِ الأعظمَ الذي إذا دُعِيَ به أجابَ، ثم غابَ عني وبقِيتُ وحدي.

فبينما أنا ذاتَ يومٍ مستوحِشٌ من الوَحْدَةِ دعوتُ اللهَ فإذا شخصٌ ءاخذٌ بثيابي بلطفٍ فقالَ لي: «سَل تُعْطَهُ» فراعَني قولُه، فقالَ لي: «لا رَوَّعَ اللهُ عليك، أنا أخوكَ «الخَضِرُ» فآنسَني وأذهبَ عني هَـمّي.

ورُوِيَ أن «الخَضِرَ» الآنَ على منبرٍ في البحرِ، وقد أُمِرَتْ دوابُّ البحرِ أن تسمعَ له وتطيعَ، وهو حيٌّ موجودٌ إلى زمانِنا هذا ولكنه محجوبٌ عن الأبصارِ، وذلك مشهورٌ عند أهلِ العلمِ والصلاحِ والمعرفةِ، والصوفيةُ وحكاياتُهم في رؤيتِه والاجتماعِ به والأخذِ عنه وسؤالِه وجوابِه ووجودِه في المواضعِ الشريفةِ ومواطنِ الخيرِ أكثرُ من أن تُحْصَرَ وأشهرُ من أن تُذْكَرَ.

«اللهُ» هو اسمُ اللهِ الأعظمُ بالنسبةِ للأسماءِ المفردةِ، وبالنسبةِ للاسمِ الذي لهُ تابعٌ: «اللهُمَّ إني أسألُكَ بأنَّ لكَ الحمدَ لا إلهَ إلا أنتَ المنانُ بديعُ السمواتِ والأرضِ يا ذا الجلالِ والإكرامِ يا حيُّ يا قيومُ»، هذا ثبتَ حديثًا عن رسولِ اللهِ ﷺ أنَّهُ قالَ لرجلٍ قالَ هذا في صلاتِهِ: «لقد دعوتَ اللهَ باسمِهِ الذي إذا دُعِيَ بِهِ أجابَ وإذا سُئِلَ بِهِ أعطى».

ففي صحيح ابن حبان من حديث عبد الله بن بريدة عن أبيه أن رسول الله ﷺ سمع رجلًا يقول: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنِّي أَشْهَدُ أَنَّكَ أَنْتَ اللَّه لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، الأَحَدُ، الصَّمَدُ، الَّذِي لَمْ يَلِدْ، وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ فقالَ: لقد سأل الله بالاسم الَّذِي إِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى ، وَإِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ» وفي لفظ «لَقَدْ سَأَلْتَ اللهَ بِاسْمِهِ الْأَعْظَمِ».

هذا الحديثُ أقوى من كلِّ ما وردَ في اسمِ اللهِ الأعظمِ. السِّرُّ في المفتاحِ مفتاحِ اسمِ اللهِ الأعظمِ أكلُ الحلالِ ولبسُ الحلالِ، قبلَ نحوِ مائةِ سنةٍ المسلمونَ كانَ طعامُهُم حلالا في تلكَ الأيامِ إذا إنسانٌ مَرِضَ فاجتمَعَ عندَهُ عددٌ وقرأوا سورةَ ﴿يسٓ ١﴾ يس يتعافى مِنْ أَيِّ مرضٍ حتى لو كانَ مجنونًا رُبِطَ بالحديدِ. أما اليومَ في الغالبِ لا يحصلُ لأنَّ الحرامَ انتشرَ، أكلُ الربا صارَ كثيراً، فلذلكَ السرُّ لا يحصلُ كثيراً إلا قليلا.

اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ
تُصْلِحُ بِهَا شَأْنِي فِي الدَّارَيْنِ،
وَارْحَمْنِي رَحْمَةً مِنْكَ أَسْعَدُ بِهَا فِي الدَّارَيْنِ

ونَجَّيْناهُ وأهلَهُ مِنَ الكرْبِ العَظيمِ

لَبِثَ سيدُنا نوحٌ في قومِهِ يَدْعُوهُم إلى الإسلامِ أَلْفَ سنةٍ إلا خَمسينَ عامًا قالَ اللهُ تعالى: ﴿ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ﴿١٤﴾ ﴾ العنكبوت، وكانَ قومُهُ يُؤْذُونَهُ ويَضْرِبُونَهُ ويَسُبُّونَهُ حتى يُغشى عَليهِ، حتى تمَادَوْا في معصيتِهم وعَظُمَتْ مِنهُمُ الخطيئةُ فلا يأتي قَرنٌ إلا كانَ أخبثَ مِنَ الذي كانَ قبلَهُ، حتى إنْ كانَ الآخِرُ ليقولُ: قد كانَ هذا مع ءابائِنا وأَجْدادِنا مجنونًا لا يَقْبَلُونَ منهُ شيئًا.

ومِنْ جُملةِ ما قالَ لهم: ﴿ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ﴿٣٤﴾ ﴾ هود أي أنَّ اللهَ هُوَ الذي يهدِي مَنْ يشاءُ ويُضِلُّ مَنْ يَشاءُ، ولكنَّ اليأسَ لَم يدخُلْ قلبَ نوحٍ بل أخذَ يُكَرِّرُ عليهِم ويقولُ لهم: «اعبُدُوا اللهَ وحدَهُ واتركُوا هذهِ الأَوثانَ» ويَبْسُطُ لهمُ البراهِينَ، ولم يُؤْمِنْ بِهِ إلا جماعةٌ قليلةٌ استجابوا لدَعْوَتِهِ وصَدَّقُوا برسالتِهِ.

ثم إنَّ اللهَ أَوحى إليهِ أنَّهُ لنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إلا مَنْ قَدْ ءامَنَ قالَ تعالى: ﴿ وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ ﴿٣٦﴾ ﴾ هود، فلمَّا يَئِسَ مِنْ إيمانِهِم دعا عَلَيْهِم فقالَ: ﴿ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ ﴾ نوح قالَها بعدَ أنْ أُوحِيَ إليهِ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ معَهُ إلا مَنْ قد ءامَنَ.

فلمَّا شَكَا إلى اللهِ واستَنْصَرَهُ عليهِم أَوحى اللهُ إليهِ: ﴿ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ﴿٣٧﴾ ﴾ هود أي اعْمَلِ السفينةَ بأَعْيُنِنا أي بعِلْمِنا وبما أَوْحَيْنا إِلَيكَ مِنْ كَيفِيَّةِ صَنْعَتِها ﴿ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ هود أي لا تَطْلُبْ إمْهالَهُم فقد حانَ وقتُ الانتقامِ منهم فإنَّهُ محكومٌ منَّا عليهِم بالغَرَقِ، أي في الوقتِ المضروبِ لذلكَ فلا يتأَخَّرُ إغراقُهم عنهُ.

قالَ تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ۝٧٥ ﴾ الصافات أي لَهُ وأهلَكْنا الكافرينَ مِنْ قومِهِ ﴿ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ۝٧٦ ﴾ الصافات أي عذابِ الغَرَقِ بالطُّوفانِ. فأقبلَ نوحٌ على عملِ الفُلكِ وجَعَلَ يُهَيِّئُ السفينةَ وكان قومُهُ لا يَعرِفُونَ الفُلكَ قبلَ ذلكَ، وجعلَ قومُهُ يَـمُرُّونَ بِهِ وهُوَ في عملِهِ فيَسْخَرُونَ منهُ ويقولونَ: يا نوحُ صِرتَ نـجارًا بعدَ النبوةِ!

ويُقالُ إنَّ نوحًا جعلَ الفُلكَ ثلاثَ طبقاتٍ: سفلى ووسطى وعُلْيا، السفلى للدوابِّ والوحوشِ، والوسطى للناسِ، والعليا للطيورِ، حتى إذا فرغَ منهُ وقد عَهِدَ اللهُ إليهِ ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ۝٤٠ ﴾ هود وقد جعلَ التنورَ ءايةً وكانَ تنورًا من حجارةٍ كانت لـحواءَ، وأخبرَتْهُ زوجتُهُ بفورانِ الماءِ مِنَ التنورِ، ولَمَّا فارَ التنُّورُ حـملَ نوحٌ مَنْ أمرَ اللهُ بـحملِهِ وكانوا نـحوَ ثـمانِينَ. وكانَ فيها نوحٌ وثلاثةٌ مِنْ بنيهِ سامٌ وحامٌ ويافِثُ وأزواجُهُم وتـخلَّفَ عنهُ ابنُهُ كنعانُ وكانَ غيرَ مؤمنٍ. وقالَ تعالى: ﴿ ۞ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٤١ ﴾ هود.

ثـم لَمَّـا اطمأنَّ نوحٌ في الفُلكِ، وأدخلَ فيهِ مَنْ أُمِرَ بِهِ جاءَ الماءُ كمَا قالَ تعالى: ﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ۝١١ ﴾ القمر أي مُنْصَبٍ انصبابًا شديدًا ﴿ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا ۝١٢ ﴾ القمر أي تنبُعُ نَبْعًا ﴿ فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ۝١٢ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ۝١٣ ﴾ القمر والدُّسُرُ: المساميرُ. وقولُهُ تعالى: ﴿ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا ۝١٤ ﴾ القمر أي بحفظِنا وحِراسَتِنا.

وجعلتِ الفُلكُ تـجري بهم في موجٍ كالجبالِ قالَ اللهُ تعالى: ﴿ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ ۝٤٢ ﴾ هود، وذلكَ أنَّ اللهَ تعالى أرسلَ مِنَ السماءِ مَطرًا لَـم تَعْهَدْهُ الأرضُ قبلَهُ، القطرةُ كالجبلِ. المطرُ غطَّى كُلَّ جبالِ الدنيا. وأمرَ الأرضَ أن تُخْرِجَ ماءَها، فنبعَتْ مِنْ جميعِ فِجاجِها فأخرجَتِ الماءَ وقد عَمَّ جميعَ الأرضِ سهلَها وحَزنَها وجبالَها

وقفارَها، فلم يَبْقَ على وجهِ الأَرْضِ أحدٌ ممن عَبَدَ غيرَ اللهِ عزَّ وجلَ. قالَ اللهُ تعالى: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ الأعراف.

وطافَتِ السفينةُ بالأرضِ كُلِّها، صارَتْ تدورُ بِـهم ستةَ أشهرٍ وزيادةً لا تَسْتَقِرُّ حتى ذهبَتْ بـهم إزاءَ الكعبةِ وإلى منًى وإلى عرفاتٍ. ثم بعدَ أنْ هلكَ غيرُ المؤمنينَ فلم يبق منهم كبيرٌ ولا صغيرٌ، وبعدَ أنْ أَمرَ اللهُ الأرضَ أن تبتلعَ ماءَها، وأمرَ السماءَ أن ترفعَ ماءَها. ذهبَتِ السفينةُ في الأرضِ تسيرُ بـهم حتى انتهَتْ إلى جبلِ الجوديِّ وهو بأرضِ الـمَوْصِلِ فاستقرَتْ عليه.

قالَ تعالى: ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ هود. ثم لـمَّا غاضَ الماءُ أي نَقَصَ عمَّا كانَ وأمكنَ السَّعْيُ فيها والاستقرارُ عليها هبطَ نوحٌ ومَنْ معهُ مِنَ السفينةِ التي استقرَّتْ بعدَ سيرِها على ظَهْرِ الجوديِّ قالَ اللهُ تعالى: ﴿ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ ﴾ هود.

اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ العَفْوَ

وَالعَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا والآخِرَة

الكعبةُ.. البيتُ الحرامُ

مقصِدُ الملايينِ مِنَ المسلمينَ يَؤُمُّونَها كلَّ عامٍ

قالَ اللهُ تباركَ وتعالى: ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ ﴾ الحج. أمرَ اللهُ تباركَ وتعالى إبراهيمَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ ببناءِ البيتِ الحرامِ - الكعبةِ- وبوَّأَهُ اللهُ مكانَهُ أي أرشدَهُ إليهِ ودلَّهُ عليهِ، وقيلَ إنَّ الذي دلَّهُ على موضعِ البيتِ هو جبريلُ عليهِ السلامُ، فسارَ إبراهيمُ عليهِ السلامُ إلى مكةَ المكرمةِ، فلما وصلَ إلى مكةَ وجدَ إسماعيلَ عليهِ السلامُ يُصلِحُ نَبْلًا لهُ وراءَ زمزمَ فقالَ لهُ: يا إسماعيلُ إنَّ اللهَ قد أمرني أن أبنيَ بيتًا، قالَ لَهُ إسماعيلُ: فأطِعْ ربَّكَ، فقالَ لَهُ إبراهيمُ: قد أمركَ أن تُعينَني على بنائِهِ، قالَ: إذَنْ أفعلُ، فقامَ إبراهيمُ عليهِ السلامُ إلى مكانِ البيتِ، فجعلَ يبني وإسماعيلُ يناولُهُ الحجارةَ، وكلما أنهيا بناءَ صفٍّ منها ارتفعَ مقامُ إبراهيمَ به حتى يبنيَ الذي فوقَهُ، وهكذا حتى تمَّتْ عِمارتُها.

ومقامُ إبراهيمَ هو حجرٌ كان يقفُ عليهِ إبراهيمُ عندَ بناءِ الكعبةِ وَضَعَهُ لهُ ابنُهُ إسماعيلُ ليرتفعَ عليهِ لَمَّا تعالى وارتفع البناءُ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ ﴾ البقرة. والمقصودُ أنَّ إبراهيمَ الخليلَ بنى أشرفَ المساجدِ في أشرفِ البقاعِ في وادٍ غيرِ ذي زرعٍ، ودعا لأهلِها بالبركةِ وأن يُرزَقُوا مِنَ الثمراتِ مَعَ قلةِ المياهِ وعدمِ الأشجارِ والزروعِ والثمارِ وأن يجعلَهُ اللهُ حرمًا ءامنًا. ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ﴿١٢٦﴾ ﴾ البقرة أي اجعلْ هذا البلدَ أو هذا المكانَ ﴿ بَلَدًا ءَامِنًا ﴿١٢٦﴾ ﴾ البقرة ذا أَمْنٍ كعيشةٍ راضيةٍ أو ءامنًا مَنْ فيهِ ﴿ وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴿١٢٦﴾ ﴾ البقرة لأنَّهُ لم يكن لهم ثمرةٌ.

كذلكَ سألَ إبراهيمُ عليهِ السلامُ اللهَ أنْ يبعَثَ فيهم رسولا منهم أي من جنسِهم وعلى لغتِهمُ الفصيحةِ البليغةِ يُعَلِّمُهُمُ الكتابَ والحكمةَ ويُزَكِّيهِم ويُطَهِّرُهم. وقد استجابَ اللهُ تعالى دعوةَ نبيِّهِ إبراهيمَ عليهِ السلامُ فبعثَ في العربِ وفي أشرفِ القبائلِ منهم رسولا عظيمًا وهو سيدُنا محمدٌ ﷺ سيدُ الأولينَ والآخرينَ.

﴿ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ ﴿١٢٩﴾ ﴾ البقرة مِنْ أَنْفُسِهِمْ فبعثَ اللهُ فيهم محمدًا عليهِ السلامُ. كما أخرجَ أحمدُ والحاكمُ والبيهقيُّ عَنِ العرباضِ بنِ سارية قالَ قالَ رسولُ اللهِ ﷺ:«أنا دعوةُ أبي إبراهيمَ وبشارةُ عيسى عليهما السلامُ».

﴿ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ ﴿١٢٩﴾ ﴾ البقرة يقرأُ عليهِم ويُبَلِّغُهُم ما تُوحِي إليهِ مِنْ دلائلِ وَحْدانِيَّتِكَ وصدقِ أَنبيائِكَ ورسُلِكَ ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ ﴿١٢٩﴾ ﴾ البقرة القرءانَ ﴿ وَٱلۡحِكۡمَةَ ﴿١٢٩﴾ ﴾ البقرة السُنةَ وفهمَ القرءان ﴿ وَيُزَكِّيهِمۡ ﴿١٢٩﴾ ﴾ البقرة ويُطَهِّرُهُم مِنَ الشركِ وسائرِ الأَرجاسِ ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ﴿١٢٩﴾ ﴾ البقرة الغالبُ الذي لا يُغْلَبُ ﴿ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ ﴾ البقرة فيما أَوْلَيْتَ.

لقد استجابَ اللهُ دعوةَ نبيِّهِ إبراهيمَ ﷺ وجعلَ الكعبةَ.. البيتَ الحرامَ مَقْصِدَ الملايينِ مِنَ المسلمِينَ يَؤُمُّونَها كُلَّ عامٍ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَميقٍ مِنْ مَشارقِ الأَرضِ ومغاربِها على اختلافِ أجناسِهِم ولغاتِهِم وألوانِهِم لا فرقَ بينَ فقيرٍ وغنيٍّ وكبيرٍ وصغيرٍ ولا فرقَ بينَ عربيٍّ وأَعجميٍّ إلا بالتقوى. يقولُ اللهُ تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ ﴿١٣﴾ ﴾ الحجرات.

اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الحَرَامَ وارْزُقْنَا التُّقَى والغِنَى
والعَفَافَ والعِفَّةَ والتَّعَفُّفَ، يا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ

كفى اللهُ كيدَ المجرمينَ

بعدما أصرَّ قومُ إبراهيمَ عليه الصلاةُ والسلامُ على عبادةِ غيرِ اللهِ ولم يؤمنْ بهِ إلا نفرٌ قليلٌ منهُم، ولَما لَمْ يَجدْ إبراهيمُ عليه السلامُ منهم إقبالا إلى الهدى والإيمانِ أرادَ أن يهاجرَ إلى بلدٍ يتمكنُ فيهِ من عبادةِ اللهِ ودعوةِ الناسِ فيهِ إلى الإيمانِ والإسلامِ، علَّهُ يجدُ هناك ءاذانًا صاغيةً وقلوبًا واعيةً تقبلُ الحقَّ والإيمانَ وتُقرُّ بوحدانيةِ اللهِ الملكِ الديانِ مالكِ السمواتِ والأرضِ. قال تعالى حكايةً عن نبيِّهِ إبراهيمَ عليه السلامُ: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾﴾ الصافات وذلك حينَ أرادَ هجرةَ قومِهِ بعد هذا الإصرارِ والعنادِ منهُم على شركِهِم، أي إني ذاهبٌ إلى حيثُ أمرني ربّـي عزَّ وجلَّ وهو الشامُ، أو المعنى إلى حيثُ أتـمكنُ فيهِ من عبادةِ ربي عز وجلَّ. وهاجرَ سيدُنَا إبراهيمُ عليه السلامُ مع زوجتِهِ سارةَ إلى أرض الشامِ، وكانت هجرةُ إبراهيمَ عليه السلامُ إلى بر الشامِ بأمرِ اللهِ فيها بركةٌ.

يقالُ إنه لَما ضاقَتْ سبلُ العيشِ في الشامِ وعمَّ القحطُ رَحَلَ إبراهيمُ عليهِ السلامُ إلى مصرَ وكانَتْ معه زوجتُهُ سارةُ، وكانَ على هذهِ الأرضِ ملكٌ جَبَّارٌ متسلطٌ غيرُ مؤمنٍ، وكان قابضًا على زمامِ الحكمِ في هذهِ البلادِ، وكانَ من جملةِ الفسادِ الذي عندَ هذا الملكِ الخبيثِ أنه كان إذا دخلَتْ إلى بلدتِهِ وأرضِهِ امرأةٌ جميلةٌ يأخذونَـهَا اليه ليفعلَ الفاحشةَ بِـها.

فلما دخلَ إبراهيمُ عليه السلامُ مع زوجتِهِ سارةَ إلى أرضِ الجبارِ وكانَتْ سارةُ من أحسنِ وأجملِ النساءِ وكانت لا تعصِي إبراهيمَ عليهِ السلامُ، وُصِفَ حُسْنُ وجمالُ سارةَ عليهَا السلامُ لهذا الـملكِ الجبارِ الخبيثِ فأرسلَ إلى إبراهيمَ فقالَ لهُ: من هذهِ المرأةُ التي معكَ؟ ففَطِنَ إبراهيمُ عليهِ السلامُ إلى مقصدِهِ الخبيثِ ومَأربهِ وخَشِيَ إِنْ أخبرَهُ أنَّـهَا زوجتُهُ أن يُبَيِّـتَ لهُ الشَّرَّ فيقتلهُ ليتخلص منهُ فيستأثر بسارةَ من بعدِهِ، فقالَ لهُ إبراهيمُ: «أختِي» أي أختِي في الاسلامِ، فظنَّ الملكُ الجبارُ أنها غيرُ متزوجةٍ، فطَلَبَ منهُ أن يُحضرَهَا إليهِ في قصرِهِ، وذَهَبَ إبراهيمُ عليهِ السلامُ إلى زوجتِهِ سارةَ وأخبرهَا بـمَا

جَرَى مع هذا الملكِ الجبارِ وقال لها: يا سارةُ ليسَ على وجهِ الأرضِ زوجانِ مؤمنانِ غيرِي وغيرَكِ وإنَّ هذا سألني فأخبرتُهُ أنَّكِ أختِي فلا تُكَذّبِينِي، ودَخَلَتْ سارةُ على هذا الملكِ الجبارِ بعد أن قَامَتْ وتوضأَتْ ودعَتِ اللهَ تعالى أن يَكْفِيَهَا شَرَّ هذا الملكِ الجبارِ.

فلَما رءاهَا هذا الـمَلِكُ أعجب بِـها ومدَّ يده اليها لِيَتَنَاوَلَـهَا بيدِهِ لكنْ يَبِسَتْ يدُهُ فقال لَـها: ادعي اللهَ لِي ولا أضرُّكِ، فدَعَتِ اللهَ تبارك وتعالى فانفكَّتْ يدُهُ بعد يُبْسِهَا وعادَتْ إلى طبيعتِهَا، ولكنَّ هذا الخبيثَ طاوعَ نفسَهُ الخبيثةَ وأَمَرَتْهُ أن يَـمُدَّ يَدَهُ إلى سارةَ لِيَتَنَاوَلَـهَا مرةً ثانيةً، فلما أهوَى إليهَا يَبِسَتْ لهُ مثلَ المرةِ الأولَى أو أشدَّ، فقال لـها: ادعي اللهَ لي ولا أضرُّكِ فَدَعَتْ سارةُ اللهَ تعالى فأطلقَ اللهُ يدَهُ، فلما رأى هذا الخبيثُ ما رأى رَدَّهَا إلى إبراهيمَ عليهِ السلامُ، ودعا بعضَ حَجَبَتِهِ فقالَ لَـهُم: إنكُم لـم تأتوني بإنسانٍ إنَّـما أتيتمونِـي بِـجِنيةٍ، ووَهَبَ لسارةَ وأَخْدَمَهَا هاجرَ، فأَقبَلَتْ سارةُ عليها السلامُ بهاجرَ إلى زوجِهَا إبراهيمَ عليهِ السلامُ وهو قائمٌ يصلّي.

ثم لَمَّا سألَـها إبراهيمُ عما جرى معها قالت له: كَفَى اللهُ كيدَ الكافرينَ وأَخْدَمَنِـي هاجرَ، وقد روى هذه القصةَ بنحوِهَا البخاريُّ في صحيحِهِ عن أبي هريرةَ موقوفًا والبزارُ في مسندِهِ والإمامُ أحمدُ عن أبي هريرةَ مرفوعًا.

اللَّهُـمَّ اسْتُرْ عَوْرَاتِنَا وءَامِنْ رَوْعَاتِنَا
واكْفِـنَا مَا أَهمَّنا وَقِنَا شَرَّ مَا نَتَخَوَّفُ

رَبِّ أَرِنِي
كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى

أَيَّدَ اللهُ تباركَ وتعالى نَبِيَّهُ «إبراهيمَ» الخليلَ عليهِ السلامُ بمعجزاتٍ باهراتٍ، كانتِ الدليلَ الساطِعَ على نبوَّتِهِ، ومنها إحياءُ الطيورِ التي ماتَتْ على يديهِ بإذنِ اللهِ ومشيئَتِهِ. ما كانَ سَيدُنا «إبراهيمُ» عليهِ السلامُ في وَقْتٍ من الأوقاتِ شاكًّا في قُدْرَةِ اللهِ تعالى، بلْ كانَ منذُ صِغَرِهِ قد أُلْهِمَ الرُّشْدَ والإيمانَ، ولَما نَزَلَ عليه الوحيُ وأُوتِيَ النبوةَ وبَعَثَهُ اللهُ رسولا يُعَلِّمُ الناسَ الإسلامَ، ذهبَ إلى مَلِكِ البلادِ «نـمْرُودَ» الذي كانَ كافِرًا جاحِدًا لا يَعْتَرِفُ بوجودِ اللهِ سبحانَهُ وتعالى.

فقالَ لهُ «إبراهيمُ» عليهِ السلامُ وهو يُجادِلُهُ: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ ٢٥٨﴾ البقرة، فقالَ «نـمْرُودُ» : ﴿أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُ ٢٥٨﴾ البقرة والعياذُ باللهِ تعالى، ثم أَطْلَقَ سراحَ رَجُلٍ كانَ سَجِينًا عندَه محكومًا عليه بالإعدامِ فقالَ: «لقد أَحْيَيْتُهُ»، ثم قَتَلَ رَجُلا ءاخرَ فقالَ: «لَقَدْ أَمَتُّهُ»، فَغَلَبَهُ سَيِّدُنا «إبراهيمُ» لَما قالَ لهُ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَ ٢٥٨﴾ البقرة. ولكنَّ «نـمْرُودَ» لم يَتَوَقَّفْ عندَ هذه الحادثَةِ بل قالَ حَسَبَ ما يُرْوَى: «قُلْ لِرَبِّكَ أن يُحْيِيَ المَوْتى وإلا قَتَلْتُكَ»، فلم يَخَفْ سيدُنا «إبراهيمُ» عليهِ السلامُ منه ولكنَّهُ أَحَبَّ أَنْ يَرَى «نـمْرودُ» وأتْباعُهُ إحياءَ المَوْتى عَلَّهُم يُؤْمِنُونَ فَدعا اللهَ تعالى وقالَ: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ ٢٦٠﴾ البقرة.

وصُودِفَ مرورُ سَيِّدِنا «إبراهيمَ» عليهِ السلامُ قُرْبَ البَحْرِ فشاهَدَ جِيفَةَ بهيمَةٍ مَطْرُوحَةً على الشاطِىءِ، فإذا هاجَتِ الأمْواجُ دَفَعَتْهَا إلى البَرِّ فأكلتْ مِنْها السِّبَاعُ، فإذا ذَهَبَتِ السّباعُ جاءتِ الطيورُ فأكلتْ منها ثم طارَتْ، ثم إذا سَحَبَ الْمَوْجُ الجِيفَةَ إلى البحرِ أَكَلَتْ منها الأَسْماكُ والحِيتانُ، فدعا «إبراهيمُ» عليه السلامُ رَبَّهُ وقالَ: «رَبّ أَرِني كيفَ تَجْمَعُ أجْزاءَ الحَيَوانِ في بُطونِ السِّباعِ والطيورِ وحَيواناتِ البَحْرِ لِيَزْدادَ يَقِينِي».

وعندَها تَحْصُلُ مُعجزَةٌ كبيرةٌ باهِرَةٌ دالَّةٌ على صِدْقِ هذا النبيِّ العظيمِ وأنَّهُ مُرْسَلٌ من عندِ اللهِ تباركَ وتعالى، إذ استجابَ اللهُ عزَّ وجلَّ لِدُعاءِ «إبراهيمَ» عليهِ السلامُ وعَلَّمَهُ كيفَ يَصْنَعُ أَوَّلا، فَأَمَرَهُ كما قيلَ بأنْ يَأْخُذَ أَرْبَعَةً من الطَيْرِ، فأخذَ دِيكًا أحْمَرَ، وحمامَةً بَيْضاءَ وطاوُوسًا أخْضَرَ وغُرابًا أسْوَدَ، ثم ذَبَحَها وأَسالَ دَمَها. وبعدَ ذلكَ قَطَّعَها قِطَعًا صَغيرةً، وَخَلَطَ لُحُومَها ببعْضِها مَعَ الدمِ والريشِ حتى يكونَ أعْجَبَ، ثم وَزَّعَ أجزاءَ هذا الخليطِ الغريبِ على سَبْعَةِ جبالٍ، ووقَفَ هو بحيثُ يرى تِلْكَ الأجْزاءَ، وأمْسَكَ رُءوسَ تِلْكَ الطيورِ في يدِهِ ثم قالَ: «تَعالَيْنَ بإذنِ اللهِ».

فتَطَايَرَتْ تلكَ الأجزاءُ، فَجَعَلَ سيدُنا «إبراهيمُ» عليهِ السلامُ يَنْظُرُ إلى الريشِ يطيرُ إلى الريشِ، والدمِ إلى الدمِ، واللَّحمِ إلى اللَّحْمِ، والأجْزاءِ مِنْ كلِّ طائرٍ، يَتَّصِلُ بَعْضُها إلى بعضٍ. وعادَتِ الأشْلاءُ تتجمَّعُ، حتى قامَ كلُّ طائرٍ وَحْدَهُ ولكنْ مِنْ غيرِ رأسٍ، ليكونَ أبلغَ لسيدِنا «إبراهيمَ» عليهِ السلامُ في الرؤيةِ التي سَأَلَها، وعادَتِ الروحُ إليها وسَعَتْ إليهِ بقدرةِ اللهِ مُسْرِعَةً، وصارَ كلُّ طائرٍ يَجِيءُ لِيَأْخُذَ رَأْسَهُ الذي في يدِ سيدِنا «إبراهيمَ» عليه السلامُ، فإذا قَدَّمَ له رَأْسًا غيرَ رَأْسِهِ لا يَقْبَلُهُ، فإذا قَدَّمَ إليهِ رأسَهُ تَرَكَّبَ مع بَقِيَّةِ جَسَدِهِ بقدرةِ اللهِ، فاللهُ عزيزٌ لا يَغْلِبُهُ شيءٌ، ولا يَمْتَنِعُ عليه ما يريدُ.

ثم طارَتِ الطيورُ كما كانتْ من جديدٍ بإذنِ اللهِ، بعد أن تَحَقَّقَتْ معجزةٌ كبيرةٌ لِنَبِيٍّ مِنْ أعْظَمِ الأنبياءِ قَدْرًا عندَ اللهِ تعالى. وعلى الرَّغْمِ مِن ذلكَ لم يُؤْمِنْ «نـمْرُودُ» إذ قد غَلَبَتْ عليهِ شَقاوَتُهُ فَأَذَلَّهُ اللهُ تعالى بأنْ سَلَّطَ عليه نَوْعًا من الحشراتِ دخلَ رأسَهُ ولم يكنْ يَهدأُ أَلَمُهُ حتى يُضْرَبَ بالأحذيةِ والكُفوفِ الـمُجْتَمِعَةِ إلى أنْ ماتَ.

اللَّهُمَّ أَرِنَا الحَقَّ حَقًّا وارْزُقْنَا اتِّباعَه
وأَرِنَا البَاطِلَ بَاطِلا وارْزُقْنَا اجْتِنَابَه

تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ

إنَّ يوسفَ عليهِ السلامُ لَما رأى نعمةَ اللهِ عليهِ قد تـمَّتْ وشَـمْلَهُ مَعَ أَبيهِ وأَهلِهِ قد اجتمَعَ وفتَحَ عليهِ مِنْ خزائنِ رحـمتِهِ ما فَتَحَ، مِنْ بعدِ ما أفسدَ الشيطانُ بينَهُ وبينَ إخوتِهِ بـما فعلوا مِنْ تلكَ الأفاعيلِ الخسيسةِ، أثنى على ربِّهِ بما هو أَهلُهُ واعترفَ لهُ بعظيمِ إحسانِهِ وفضلِهِ إذ أخرجَهُ مِنَ السجنِ بعدَ الـهَمِّ والضيقِ والحُزنِ وجعلَهُ مَلِكًا وحاكِمًا نافِذَ الكلمةِ وسألَهُ أنْ يتوفَّاهُ ويُـمِيتَهُ على الإسلامِ الذي فيهِ السعادةُ الأَبديةُ في الآخرةِ.

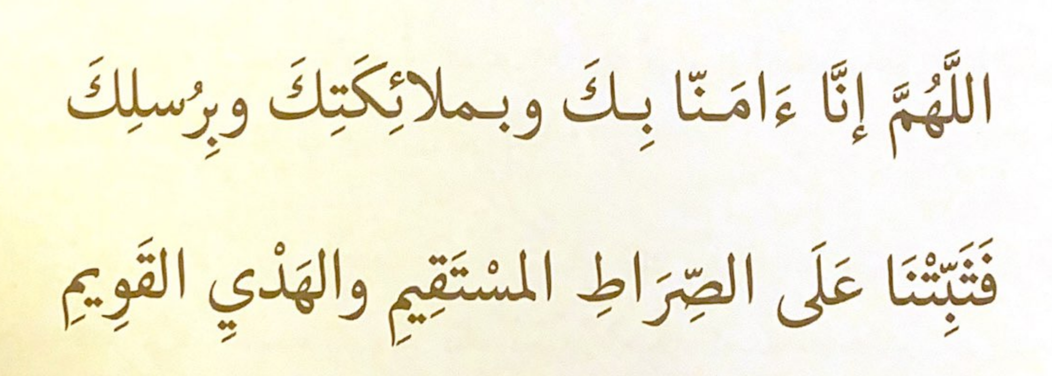
سألَ اللهَ تباركَ وتعالى: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ١٠١﴾ يوسف ﴿رَبِّ﴾ أي يا ربُّ خالقِي ورازقِي ومالكَ أَمْرِي ومعبودِي الذي ليسَ لي معبودٌ سِواهُ ﴿قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ و ﴿مِن﴾ فيهما للتبعيضِ إذ لم يُؤْتَ إلا بعضَ مُلكِ الدنيا إذ أصبحَ ملكًا لـمصرَ فقط، وبعضَ ﴿تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ تعبيرِ الرُّؤَى ﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي خالقَهُما على غيرِ مِثالٍ سابِقٍ ﴿أَنتَ وَلِيِّۦ﴾ أي مُتَوَلِّي أَمْرِي ﴿فِي﴾ الدَّارَينِ ﴿ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ﴾.

ثُمَّ طلبَ الوفاةَ على حالِ الإسلامِ ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾ أي إذا حانَ أجلي اقْبِضْنِي إليكَ مُسْلِمًا، اجْعَلْنِي مُسْتَمِرًّا على الإسلامِ إلى ءاخِرِ لحظةٍ في حياتي ﴿وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ معناهُ واجعَلْ لَحاقِي بصالحِ ءابائِي إبراهيمَ وإسحاقَ ومَنْ قبلَهُم مِنْ أَنبيائِكَ ورُسُلِكَ عليهِمُ السلامُ.

فقولُ يُوسُفَ عليهِ السلامُ ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا ١٠١﴾ يوسف كقولِ يَعقُوبَ عليهِ السلامُ لولدِهِ ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ١٠٢﴾ آل عمران وإنما دعا بِهِ يُوسُفُ عليهِ السلام ليقتدِيَ بِهِ قَوْمُهُ ومَنْ بعدَهُ مـمن ليسَ بـمأمونِ العاقبةِ.

لـهذا الغرضِ طلبَ مِنَ اللهِ أنْ يَتَوَفَّاهُ مُسلمًا مَعَ أَنَّهُ شَيءٌ لا شَكَّ فيهِ، كما نقولُ في كُلِّ صلاةٍ ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۞ ﴾ الفاتحة. ثُمَّ أَلَيسَ الرسولُ ﷺ كانَ يقولُ في كُلِّ صلاةٍ ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۞ ﴾ الفاتحة مع أنَّهُ كانَ مُهْتَدِيًا قَبلَ ذلكَ قبلَ نزولِ الفاتحةِ؟! ومعنى قولِهِ ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۞ ﴾ الفاتحة أَكرِمْنَا باستدامةِ الهدايةِ على الإسلامِ.

هو الرسولُ عليهِ السلامُ كانَ مُؤْمِنًا مِنْ أَوَّلِ نشأَتِهِ إنـما الـمرادُ الثباتُ على الهُدى، وإنما التَّثبيتُ على الشيءِ الحاصلِ وليسَ على شيءٍ لم يَحصُلْ. كما كانَ رسولُ اللهِ ﷺ يقولُ مَعَ أَنَّهُ مَأْمُونٌ عَليهِ ولكِنْ لِيُعَلِّمَ أُمَّتَهُ: «اللَّهمَّ يا مُقَلبَ القلوبِ ثَبِّتْ قُلوبَنا على دِينِكَ» رواهُ البيهقيُّ. واستجابَ اللهُ تعالى دُعاءَ يُوسُفَ عليهِ السلامُ فلَمْ يَلْبَثْ إلا قليلا حتى وافاهُ الأَجلُ فارْتَحَلَ والْتَحَقَ بآبائِهِ وصالحِي إخوانِهِ فسلامُ اللهِ عليهِ وعلَيهِم وعلى كُلِّ المرسَلِينَ والحمدُ للهِ رَبِّ العالمينَ.



كلما دعا لأَخيهِ بخيرٍ

قال الملَكُ المُوَكَّلُ بِهِ ءامِينَ ولكَ بمِثلٍ

روى مسلمٌ أنَّ النبيَّ ﷺ علَّمنا الدعاءَ بظهرِ الغيبِ فيقولُ عليهِ أفضلُ الصلاةِ والسلامِ: «ما مِنْ عبدٍ مُسلمٍ يدعُو لأخيهِ بظهرِ الغيبِ إلا قالَ الملَكُ: ولك بمِثلٍ». وعن أبي الدرداءِ أيضًا أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كانَ يقولُ: «دعوةُ المرءِ المسلمِ لأخيهِ بظهرِ الغيبِ مُستجابةٌ عندَ رأسِهِ ملَكٌ مُوكَّلٌ كلما دعا لأَخيهِ بخيرٍ قالَ الملَكُ المُوَكَّلُ بِهِ ءامينَ ولكَ بمِثلٍ» رواهُ مسلمٌ. وهذا يدلُّ على فضلِ الدعاءِ في ظهرِ الغيبِ أي في غيبةِ المدعُوِّ لَهُ، وأنها دعوةٌ مُستجابةٌ بإذنِ اللهِ ويعُمُّ الفضلُ الداعيَ والمدعوَّ لَهُ، وأنَّ اللهَ تعالى يُوَكِّلُ بِهِ مَلَكًا عندَ رأسِهِ كلما دعا لأخيهِ بخيرٍ.

فالفوز كل الفوز في اتباعه والسعادة كل السعادة في اقتفاء ءاثاره والعزة والكرامة في منهجه وشريعته ولا يخفى عليكم أن الله عز وجل يحب من عباده المؤمنين أن يكونوا كالجسد الواحد فقال نبينا عليه الصلاة والسلام: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى» أخرجه البخاري ومسلم. وكانَ بعضُ السلفِ إذا أرادَ أن يدعوَ لنفسِهِ يدعُو لأخيهِ المسلمِ بتلكَ الدعوةِ لأنَّها تُستجابُ ويحصلُ لهُ مثلُها.

فأكثِرْ مِنَ الدعاءِ بظهرِ الغيبِ لأَخيكَ المسلمِ فلكَ مِنَ الدعاءِ نَصِيبٌ ويُؤَمِّنُ على دعائِكَ مَلَكٌ وأيضًا مُستجابٌ وغيرَ أنَّكَ تُساعِدُ أخيكَ المسلمَ المحتاجَ بهذا الدعاءِ بتفريجِ همِّهِ وحزنِهِ، فلنُكْثِرِ الدعاءَ لكُلِّ مُحتاجٍ.

اللَّهُمَّ

لا تَدَعْ لَنَا ذَنْبًا إلَّا غفرتَه،

ولا دَيْنًا إلَّا قَضَيْتَه

ولا مَرِيضًا إلَّا شَفَيْتَه،

ولا حَاجَةً مِنْ حَوَائِجِ الدُّنْيَا

إلَّا قَضَيْتَهَا ويَسَّرْتَها لَنَا

وأيوبَ إذ نادى ربَّهُ

أنِّي مَسَّني الضُّرُّ وأنتَ أرحمُ الرَّاحمينَ

كَثُرَتْ البلايا والأمراضُ على نبيِّ اللهِ أيوبَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ طيلةَ ثماني عشرةَ سنةً، وهو صابرٌ محتسبٌ يرجُو الثوابَ مِنَ اللهِ تعالى، قال اللهُ تعالى: ﴿ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ﴾ ص هذا ليسَ معناهُ مَسَّ جسمَهُ، الشيطانُ هَدَمَ دارَهُ وقَتَلَ أطفالَهُ وأتلفَ مالَهُ. لَم يَتَسَخَّطْ على اللهِ ولا عصى اللهَ تعالى ما تَرَكَ فرضًا فَرَضَ اللهُ عليهِ من أجلِ هذه الآلامِ والمصائبِ ولا تَسَخَّطَ على قضاءِ اللهِ. بل ظلَّ حامدًا للهِ وشاكرًا لهُ.

وقد قالَ العلماءُ: الصبرُ على البلاءِ بانتظارِ الفرجِ مِنَ اللهِ عبادةٌ، هو صَبَرَ صبراً جَميلا، لَم يبقَ من جسدِهِ سليمًا إلا قلبُهُ ولسانُهُ يذكرُ اللهَ في كلِّ أحوالِهِ ليلا ونهارًا صباحًا ومساءً. ثم ذاتَ يومٍ اثنان مرَّا بجانبِهِ فقالَ أحدُهُما للآخرِ: أنا أظنُّ أيوبَ أذنبَ ذنبًا ما أذنبَه أحدٌ، فسَمِعَ أيوبُ. فلما سَمِعَ دعا فاستُجيبَ دعاؤُهُ وأعطاهُ أولادًا بدلَ الذينَ فقدَهُم وعَوَّضَ عليهِ. أعطاهُ اللهُ ضِعفًا من الأولادِ أربعةَ عشرَ وأربعةَ عشرَ، وأمطرَ لَهُ جرادًا من ذهبٍ وجرادًا من فضةٍ، كَوْمَةً مِنْ ذهبٍ وكَوْمَةً من فضةٍ. وَرَدَّ اللهُ زوجتَهُ رحمةَ إلى شَبِيبَتِهَا.

ما كانَ يدعُو بالشفاءِ لنفسِهِ ولا بالمالِ، لكن لَما هذانِ الرجلانِ كَسَرَا قلبَهُ دعا اللهَ وابتَهَلَ إليهِ بخشوعٍ وتضرعٍ قائلا: ﴿ ۞ وَأَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾ الأنبياء، ثم خَرَجَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ لقضاءِ حاجتِهِ وأمسكَتْ زوجتُهُ بيدِهِ إلى مكانٍ بعيدٍ عن أعينِ الناسِ

لا إلهَ إلا أنتَ سُبحانكَ إنّي كنتُ مِنَ الظالمينَ

لَما وعدَ يونسُ بنُ متّى قومَهُ بالعذابِ بعدَ ثلاثةِ أيامٍ إنْ لم يُؤمنوا وخرجَ مِنْ بينِهم مُغاضِبًا لهم بسببِ كُفرِهِم وإصرارِهم وتمادِيهم في غَيِّهم وضلالِهم سارَ حتى وصلَ إلى شاطئِ البحرِ فوجَدَ قومًا في سفينةٍ في البحرِ، فطلبَ مِنْ أهلِها أن يُرْكِبُوهُ معَهم فتوسَّمُوا فيهِ خيراً فأركبوهُ معهم في السفينةِ، وسارَتْ بهمُ السفينةُ تشقُّ عُبابَ البحرِ فلمّا توسَّطُوا البحرَ جاءَتِ الرياحُ الشديدةُ وهاجَ البحرُ بهم واضطربَ بشدةٍ حتى وَجِلَتِ القلوبُ، فقالَ مَنْ في السفينةِ: إنَّ فينا صاحبَ ذنبٍ فأسْهَمُوا واقترَعُوا فيما بينَهم على أنَّ مَنْ يقعُ عليهِ السهمُ يُلقُونَهُ في البحرِ، فلمّا اقترعوا وقعَ السهمُ على نبيِّ اللهِ يونسَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ.

ولكن لَما توسَّمُوا فيهِ خيراً لم يسمحوا لأنفسِهم أن يُلقُوهُ في البحرِ، فأعادوا القرعةَ ثانيةً فوقعَتْ عليهِ أيضًا. فشمَّرَ يونسُ عليهِ السلامُ ليُلقيَ بنفسِهِ في البحرِ فأَبَوْا عليهِ ذلكَ لِما عرفوا منهُ خيراً، ثم أعادوا القرعةَ ثالثةً فوقعَتِ القرعةُ عليهِ أيضًا. فما كانَ مِنْ يونسَ عليهِ السلامُ إلا أن أَلقَى بنفسِه في البحرِ لأنَّهُ كانَ يَعتقدُ أنَّهُ لا يُصيبُهُ هلاكٌ بالغرقِ فلا يجوزُ أن يُظَنَّ أنَّ ذلكَ انتحارٌ منهُ لأنَّ الانتحارَ أكبرُ الجرائمِ بعدَ الكفرِ وذلكَ مُستحيلٌ على الأنبياءِ.

وعلى هذا يُحمَلُ ما وردَ في البخاريِّ أنَّ النبيَّ ﷺ حينَ فَترَ الوحيُ عنهُ في أوائلِ البعثةِ هَمَّ أنْ يُلقِيَ بنفسِهِ مِنْ ذِروةِ الجبلِ ولم يكُنْ همُّهُ بذلكَ إلا لتخفيفِ شدةِ الوجدِ الذي حصلَ لهُ مِنْ إبطاءِ الوحْيِ عليهِ لا للانتحارِ، فإنَّهُ حصلَ لكثيرٍ مِنَ الأولياءِ أنَّهم مَشَوْا على الماءِ ولم يَغْرَقُوا، فمَنْ حمَلَ ما وردَ في البُخاريِّ من هذهِ القصةِ أنَّ الرسولَ أرادَ أنْ ينتحِرَ فقد خرجَ من الإيمانِ.

وعندَما ألقى يُونسُ عليهِ السلامُ بنفسِهِ في البحرِ وكَّلَ اللهُ تباركَ وتعالى بِهِ حوتًا كبيراً فالتقمَهُ وابتلعَهُ ابتلاءً لَهُ على تركِهِ قومَهُ الذينَ أغضبوهُ دونَ إذنٍ، فدخلَ نبيُّ اللهِ يُونسُ

عليهِ السلامُ إلى جوفِ الحوتِ تحفُّهُ عنايةُ اللهِ حتى صارَ وهو في بطنِ الحوتِ في ظلماتٍ حالكةٍ ومُدْلَـهِمَّةٍ ثلاثٍ وهي ظلمةُ الليلِ وظلمةُ البحرِ وظلمةُ بطنِ الحوتِ.

ثم إنَّ الحوتَ بقدرةِ اللهِ تعالى لم يَضُرَّ يونسَ ولم يَجْرَحْهُ ولم يَخْدِشْ له لحمًا ولم يكسِرْ لَهُ عظمًا، وسارَ الحوتُ وفي جوفِهِ يُونسُ عليهِ السلامِ يشُقُّ بِهِ عُبابَ البحرِ حتى انتهى بِهِ إلى أعماقِ المياهِ في البحرِ، وهناكَ سَمِعَ يُونسُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ وهو في بطنِ الحوتِ حِسًّا وأصواتًا غريبةً فقالَ في نفسِهِ: ما هذا؟ فأَوحى اللهُ إليهِ وهو في بطنِ الحوتِ: إنَّ هذا تسبيحُ دوابِّ البحرِ، فما كانَ من نبيِّ اللهِ يُونسَ عليهِ السلامُ وهو في بطنِ الحوتِ وفي تلكَ الظُلُماتِ الـمُدْلَـهِمَّةِ إلا أن أخذَ يدعُو اللهَ عزَّ وجلَّ ويستغفرُهُ ويُسَبِّحُهُ تباركَ وتعالى قائلا ما وردَ عنهُ في القرءانِ: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧ ﴾ الأنبياء.

وسمعَتْ ملائكةُ السماءِ تسبيحَهُ للهِ عزَّ وجلَّ وسألوا اللهَ تعالى أن يُفرِّجَ الضيقَ عنهُ، واستجابَ اللهُ تعالى دعاءَهُ ونجَّاهُ مِنَ الغمِّ والكَربِ والضيقِ الذي وقعَ فيهِ لأنَّهُ كانَ مِنَ الـمُسبِّحِينَ لَهُ في بطنِ الحوتِ والذاكرِينَ، وأمرَ اللهُ تعالى الحوتَ أنْ يُلْقِيَهُ في البرِّ فألقاهُ الحوتُ بالعَراءِ وهو المكانُ القَفْرُ الذي ليسَ فيهِ أشجارٌ والأرضُ التي لا يُتوارى فيها بشجرٍ ولا بغيرِهِ، ويونسُ عليهِ السلامُ مريضٌ ضعيفٌ. وقد مكثَ نبيُّ اللهِ يونسُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ في بطنِ الحوتِ ثلاثةَ أيامٍ، وقيلَ: سبعةَ أيامٍ، وقيلَ: غيرُ ذلكَ.

رَبَّنَا ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً
وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ

هل مِنْ داعٍ فيُستجَابَ لهُ

روى النَسَائيُّ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ : «إنَّ اللهَ يُمْهِلُ حتى يَمضيَ شَطْرُ الليلِ الأولُ فيأمرُ مُنَاديًا يُنادي هل من سائلٍ فَيُعْطَى هل من مُسْتغفرٍ فيُغفرَ لهُ هل مِنْ داعٍ فيُستجَابَ لهُ». هذهِ الروايةُ صحيحةُ الإسنادِ فَسَّرَتِ الروايةَ التي فيها «ينـزلُ ربُّنَا» والتي هي أشْهَرُ مِنَ الروايةِ الأولى وهذا يُقالُ لهُ مجازُ الحذفِ عندَ علماءِ البيانِ حَذْفُ لفظِ الملَكِ لأنهُ يُفهَمُ. وقالَ الحافظُ المتبحّرُ عبدُ الرحمنِ بنُ الجوزيِّ الحنبليُّ في كتابِهِ «البازِ الأشهبِ» بعدَ ذِكرِ حديثِ النـزولِ ما نصُّهُ: «إنَّهُ يستحيلُ على اللهِ عزَّ وجلَّ الحركةُ والنُّقلةُ والتغييرُ. وواجبٌ على الخلقِ اعتقادُ التنـزيهِ وامتناعُ تجويزِ النُقلةِ وأنَّ النـزولَ الذي هو انتقالٌ من مكانٍ إلى مكانٍ يفتقرُ إلى ثلاثةِ أجسامٍ جسمٍ عالٍ وهو مكانُ الساكنِ وجسمٍ سافلٍ وجسمٍ ينتقلُ مِنْ عُلْوٍ إلى أسفلَ وهذا لا يجوزُ على اللهِ قطعًا».

وفي شرحِ الزُّرْقانيّ على موطإِ الإمامِ مالكٍ، الزرقاني [دار الجيل، بيروت - المجلد الثاني، ص ٣٤] ما نصُّهُ: «وكذا حُكِيَ عن مالكٍ أنَّهُ أَوَّلَهُ بنـزولِ رحمتهِ وأمرِهِ أو ملائكتِهِ كما يُقالُ فعلَ الملِكُ كذا أي أتباعُهُ بأمرِهِ.» انتهى كلامُ الزُّرقانيِّ.

ومعنى ما وردَ في الحديثِ «شطرُ الليلِ الأولُ» أي النصفُ الأولُ منهُ. والمعنى أنهُ ينـزلُ مَلَكٌ بأمرِ اللهِ كلَّ ليلةٍ مما فوقَ السماءِ الدنيا إلى السماءِ الدنيا، فينادي بأمرِ اللهِ يقولُ مُبَلِّغًا عَنِ اللهِ «هل مِنْ داعٍ فَيُسْتَجابَ لهُ هل مِنْ مُستغفرٍ فيغفرَ لهُ هل مِنْ سائلٍ فيعطى».

فمنْ وافقَ دعاؤُهُ تلكَ اللحظةِ التي يُنادي فيها الملَكُ في الليلِ استجابَ اللهُ دُعاءَه إنْ شَاءَ؛ لأنهُ في كلِّ ليلةٍ يُوجَدُ وقتٌ يُسْتَجَابُ فيهِ الدعاءُ. الدِّيَكَةُ لَمّا تصيحُ بالليلِ معناهُ أنها رَأت الملائكةَ فالدّعاءُ تلكَ الساعةَ فيهِ فائدةٌ، الدعاءُ في ذلك الوقتِ يُستجابُ. وقدْ قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «إذا سمِعْتُمْ صِياحَ الدِّيَكةِ فَاسألوا اللهَ مِنْ فضْلِهِ فإنها رأت مَلَكًا» رواهُ البخاريُّ ومسلمٌ وأبو داودَ وغيرُهم.

اللَّهُمَّ ءَاتِ نُفُوسَنَا تَقْوَاهَا

وَزَكِّـــهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا

أَنْـــتَ وَلِـيُّهَا وَمَوْلاهَا



توبوا إلى اللهِ

حذَّرَ نبيُّ اللهِ يونسُ بنُ متى عليهِ السلامُ أهلَ نينوى مِنَ العذابِ إن لم يؤمنوا بِهِ ويَتَّبِعُوا دينَ الإسلامِ، ثم خرجَ مُغاضِبًا لهم لإصرارِهم على كُفْرِهم وعدمِ اتِّباعِهم دعوتَهُ.

ولَمّا خرجَ عليهِ السلامُ وهو ءايسٌ منهم تَغَشَّاهُمْ صباحًا العذابُ وصارَ قريبًا جدًّا منهم. وقيلَ: ظَهَرَتِ السُّحُبُ السوداءُ في السماءِ وثارَ الدخانُ الكثيفُ وهَبَطَتِ السُّحُبُ بدُخَانِها حتى غَشِيَتْ مدينَتَهُم واسْوَدَّتْ سُطُوحُهُم. ولَمّا أيقَنُوا بالهلاكِ والعذابِ أنَّهُ واقعٌ بِهِم طلبوا يونسَ عليهِ السلامُ فلم يَجِدُوهُ، وأَلهَمَهُمُ اللهُ التوبةَ والإنابةَ فأَخلصوا النيةَ في ذلكَ وقَصَدُوا شيخًا وقالوا لَهُ: قد نزلَ بنا ما ترى فماذا نفعلُ؟ فقالَ لهم: ءامِنُوا باللهِ وتُوبُوا، عندَ ذلكَ ءامَنُوا باللهِ وبرسولهِ يونسَ عليهِ السلامُ.

وكانوا خَرَجُوا مِنَ القريةِ ولَبِسُوا الـمُسوحَ وهي ثِيابٌ مِنَ الشعرِ الغليظِ، وحَثَوْا على رُءوسِهِمُ الرمادَ، وفرَّقُوا بينَ كُلِّ والدةٍ وولدِها مِنَ الناسِ والأنعامِ. ثم عَجُّوا ورَفَعُوا أصواتَهم في الدعاءِ إلى اللهِ وتَضَرَّعُوا وبكى النساءُ والرجالُ والبنونَ والبناتُ وجأَرَتْ وصاحَتِ الأَنعامُ والدوابُّ، وكانت ساعةً عظيمةً هائلةً وعَجُّوا إلى اللهِ بالتوبةِ الصادقةِ ورَدُّوا المظالـمَ جميعًا حتى إنَّهُ كانَ أحدُهم ليقلَعُ الحجرَ مِنْ بنائِهِ فيردُّهُ إلى صاحبِهِ.

فاستجابَ اللهُ منهم وكشفَ عنهُمْ بقدرتِهِ ورحمتِهِ العذابَ الشديدَ الذي كانَ قد دارَ على رءوسِهِم وصارَ قريبًا جدًّا منهم كَقِطَعِ الليلِ المظلمِ. ويُقالُ إنَّ توبَتَهُم في يومِ عاشوراءَ يومَ الجمعةِ، يقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿ فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ٩٨ ﴾ يونس.

فائدة: روى أحمدُ في مسندِهِ والحاكمُ في المستدركِ عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ: «جَعَلَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتْلُو عَلَيَّ هَذِهِ الآيَةَ ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢﴾ الطلاق حَتَّى فَرَغَ مِنَ الآيَةِ ثُمَّ قَالَ «يَا أَبَا ذَرٍّ لَوْ أَنَّ النَّاسَ كُلَّهُمْ أَخَذُوا بِهَا لَكَفَتْهُم قَالَ: فَجَعَلَ يَتْلُو بِهَا وَيُرَدِّدُهَا». والتقوى معناها أداءُ الواجباتِ كلِّها واجتنابُ المحرماتِ كلِّها وقد جاءَ عن ابنِ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهما أَنَّهُ قالَ: «ومَنْ يَتَّقِ اللهَ يُنْجِهِ في الدنيا والآخرةِ» ﴿وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ ۝٣﴾ الطلاق أي من حيثُ لا يدري. فالتقوى سببٌ للفرجِ مِنَ الكُرُباتِ في الدنيا والآخرةِ، وسببٌ للرزقِ ولنيلِ الدرجاتِ العُلى، أما المعاصي فهي سببٌ للحرمانِ في الدنيا وفي الآخرةِ، فقد روى الحاكمُ وابنُ حبانَ وغيرُهما عن رسولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قالَ:«إِنَّ الرجلَ لَيُحْرَمُ الرِّزْقَ بالذنبِ يُصِيبُهُ».

فيُحْرَمُ مِنْ نِعَمٍ في الدنيا مِنْ نحوِ صحةٍ ومالٍ أو تُمْحَقُ البركةُ مِنْ مالِهِ أو يستولي عليهِ أعداؤُهُ، وقد يُذْنِبُ الذنبَ فتسقطُ مَنْزِلَتُهُ مِنَ القلوبِ أو ينسى العلمَ. فلا تَتْرُكْ واجبًا مهما كانَ ولا تأتِ معصيةً مهما كانَتْ صغيرةً أو كبيرةً ولا تخشَ في ذلكَ تغيُّرَ الزمانِ.

اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَتُبْ عَلَينَا

إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الْغَفُورُ

رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ

لَما قتلَ موسى عليهِ السلامُ ذلكَ القِبطِيَّ الذي هُوَ مِنْ أَتباعِ فرعونَ قبلَ أنْ ينـزلَ عليهِ الوحيُّ بالنبوةِ، أصبحَ عليهِ السلامُ في المدينةِ التي دَخلَها خائفًا على نفسِهِ مِنْ فرعونَ وأتباعِهِ ويترقَّبُ وينتظرُ سُوءًا يَنالُهُ منهم إذا عَلِمُوا أنَّ هذا القتيلَ إنما قتلَهُ موسى عليهِ السلامُ في نُصرةِ رجلٍ مِنْ بني إسرائيلَ فتقوى بذلكَ ظُنُونُهم أنَّ مُوسى منهم ويترتَّبُ على ذلكَ أمرٌ عَظيمٌ. ولم يكُنْ أحدٌ مِنَ الناسِ قد رأى موسى عليهِ السلامُ يقتلُ القِبطِيَّ إلا ذاكَ الرجلَ الإسرائيليَّ. وكانَ الأقباطُ أتباعُ فرعونَ قد أتَوْا فرعونَ وقد غاظَهُم وأَغضَبهم قَتْلُ واحدٍ منهم، وطَلبوا منهُ أنْ يأخذَ لهم بثأرِهِم مِنْ بني إسرائيلَ وقالوا لَهُ: إنَّ بني إسرائيلَ قتلُوا رَجُلًا مِنَّا فَخُذْ لنا بِحَقِّنَا، فقالَ لهم فرعونُ: ائتُوني بقاتلِهِ وَمَنْ يَشُدُّ عليهِ لآخُذَ لكم حَقَّكُم.

فبينَما هُم يَطُوفُونَ يَبحثُونَ عَنِ القاتلِ ويتَلَمَّسُونَ الأَخبارَ إذْ وقعَتْ حادثةٌ أخرى بينَ ذاكَ الإسرائيليِّ وأحدِ الأقباطِ في اليومِ الثاني وإذا موسى عليهِ السلامُ يمرُّ فرأى ذاكَ الإسرائيليَّ يُقاتلُ قِبطيًّا فِرعَونيًّا ءاخرَ فاستغاثَهُ هذا الإسرائيليُّ على خَصْمِهِ الفِرعَوْنيِّ، فتقدَّمَ مُوسى عليهِ السلامُ غَاضِبًا وهو يُريدُ أنْ يَبْطِشَ بذلكَ الفرعونيِّ القِبطيِّ، ولكن لَمّا رأى هذا الإسرائيليُّ غَضَبَ مُوسى عليهِ السلامُ ورأى ءاثارَ الغَضَبِ على وجهِهِ وسَمِعَهُ يقولُ مُعَنِّفًا لَهُ على كَثْرةِ مُخاصَمَتِهِ: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ۝١٨﴾ القصص ورءاهُ وقد هَمَّ أنْ يَبْطِشَ بهذا الفِرعونيِّ فظَنَّ أنَّهُ يُريدُهُ فخافَ على نفسِهِ فقالَ لموسى عليهِ السلامُ حينئذٍ: يا مُوسى أَتريدُ أنْ تَقْتُلَنِي كما قَتلتَ نَفسًا بالأمسِ. فسَمِعَ الفِرعونيُّ هذا الكلامَ وانطلقَ وذهبَ مسرعًا إلى فِرعونَ وجماعتِهِ وأخبَرَهُم أنَّ مُوسى هُوَ الذي قَتَلَ ذاكَ الرجلَ القِبْطِيَّ. فما كانَ مِنْ فرعونَ لَما سَمِعَ هذا الخبرَ إلا أنْ أمرَ جُنْدَهُ أن يبْحَثُوا عَنْ مُوسى ويأتُوهُ بِهِ ليقتلَهُ، حتى لا يَتَجَرَّأَ أَحدٌ مِنْ بني إسرائيلَ على قَتْلِ أَحدٍ مِنْ أتباعِهِ الأَقباطِ.

وكانَ رجلٌ مؤمنٌ مِنْ ءالِ فِرعونَ يَكْتُمُ إيمانَهُ قد عَلِمَ بأمرِ فرعونَ بالإتيانِ بمُوسى ليقتُلَهُ فما كانَ منهُ إلا أنْ سَبَقَهُم إلى مُوسى عليهِ السلامُ مِنْ طريقٍ أقربَ وأَخبرَهُ بالخبَرِ وبـمؤامرةِ فرعونَ وجُندِهِ، وطلبَ منهُ ناصِحًا مُشْفِقًا عليهِ أنْ يَخْرُجَ مِنْ مِصرَ خوفًا عليهِ مِنْ فرعونَ وجُنودِهِ. وقَبِلَ مُوسى عليهِ السلامُ نَصِيحَتَهُ وخرجَ مِنْ مصرَ إلى أَرضِ «مَدْيَنَ» ودَعا ربَّهُ أنْ يَهْدِيَهُ الطريقَ إليها وأنْ يُنْجِيَهُ مِنْ شَرِّ فِرعونَ.

خرجَ سيدُنا موسى عليهِ السلامُ مِنْ أَرضِ مِصرَ يُريدُ النجاةَ مِنْ كيدِ فرعونَ وجنودِهِ، ولم يكن خروجُهُ جُبنًا لأنَّ الأَنبياءَ يَستحيلُ عليهِمُ الجُبنُ، وتَوَجَّهَ عليهِ السلامُ إلى مَدْيَنَ ماشِيًا على قَدَمَيْهِ بغيرِ زادٍ ولا دابةٍ يركَبُها فكانَ يأكلُ وَرَقَ الشَّجَرِ، ومَدْيَنُ هي المدينةُ التي أَهلكَ اللهُ تعالى فيها قَومَ نَبِيِّـهِ شُعَيبٍ، وبَقِيَ يـمشِي مسِيرةَ ثمانيةِ أيامٍ حتى وَصَلَ إلى مَدْيَنَ وقد أَثَّرَ بِهِ الجوعُ والتعَبُ، فجلسَ تحتَ ظِلِّ شَجرةٍ فأبصَرَ امرأتَينِ وكانتا أختَينِ تَرْعَيانِ الأَغنامَ وتُريدانِ سَقْيَ أغنامِهما مِنْ بئرٍ كبيرةٍ.

كانَ الرعاةُ يَسْقُونَ مَواشِيَهُم منها وكانت هاتانِ الأُختانِ تحبسانِ غنَمَهُما لِئلا يَختَلِطَ بغنمِ الآخرينَ، فأَشْفَقَ مُوسى عليهِ السلامُ عليهِما فسألَهما عَنْ سببِ تَعَهُّدِهما لرعايةِ الغنمِ بأنفسِهما، فأَخبرتاهُ بأنَّ أباهما شيخٌ كبيرٌ وليسَ عندَهُ مِنَ الأولادِ الذكورِ مَنْ يَرعَى لهُ هذهِ الأغنامَ. وكانَ مُوسى عليهِ السلامُ لَمَّا وردَ ماءَ مَدينَ وهو البئرُ وجدَ عليهِ جماعةً مِنَ الرُّعاةِ يَسْقُونَ أَغنامَهم منهُ فلمَّا فَرَغُوا أَعادُوا صخرةً كبيرةً عليهِ، وكانَت هذهِ الصَّخْرةُ لا يُطِيقُ رَفْعَهَا إلا عشرةُ رجالٍ، فلمَّا حدَّثَتْ هاتانِ الأُختانِ خبرَهما لِموسى عليهِ السلامُ تقدَّمَ نحوَ الصخرةِ الكبيرةِ الموضوعةِ على فَمِ البئرِ فرفعَها وحدَهُ ثم استقى منها الماءَ وسَقَى لهاتَينِ الفتاتَينِ غَنَمَهُما وردَّ الحجرَ مكانَهُ، فلما فرغَ مِنْ ذلكَ انصرفَ إلى ظِلِّ شجرةٍ وجلسَ تحتَها يدعُو اللهَ تعالى ويَشْكُرُهُ.

بعدَ أن سقى موسى عليهِ السلامُ غنمَ المرأتَينِ رَجَعَتَا إلى أَبِيهِما نَبِيِّ اللهِ شُعَيْبٍ عليهِ السلامُ مُسْرِعَتَينِ وأَخْبَرَتاهُ بخبرِ مُوسى عليهِ السلامُ، وكَيفَ سَقَى لهما غَنَمَهُما وأَخْبَرَتاهُ بقُوَّتِهِ، وطلبَتَا مِنْهُ أَنْ يُكْرِمَهُ على هذا الصَّنِيعِ الحَسَنِ مَعَهُما، فسُرَّ شُعَيبٌ عليهِ السلامُ

لحُسْنِ صَنِيعِ مُوسى وبَعَثَ إحدى ابْنَتَيهِ هاتَينِ لِدَعْوَتِهِ إليهِ، فجاءَتْ إلى موسى عليهِ السلامُ تمشي على استحياءٍ وَوَقارٍ وَحِشْمَةٍ وطَلَبَتْ مِنْهُ أَنْ يَذْهَبَ مَعَها إلى أَبِيها لِيَجْزِيَهُ على عَظِيمِ صُنْعِهِ مَعَها ومَعَ أُخْتِها وعلى سَقْيِهِ غَنَمَهُما، فقامَ معَها موسى عليهِ السلامُ وقالَ لها: امشِي خلفِي وانعَتِي لِيَ الطريقَ فإني أَكْرَهُ أَنْ تُصِيبَ الرِّيحُ ثِيابَكِ فتَصِفَ جَسَدَكِ، فَمَشَتْ خَلْفَهُ تَصِفُ لهُ الطريقَ حتى وَصَلَ إلى أَبِيها شُعيبٍ عليهِ السلامُ.

فلمَّا جاءَهُ أَخبَرَهُ بأَمْرِهِ مِنْ حينِ وُلِدَ والسببِ الذي أخرجَهُ مِنْ أَرضِ مِصْرَ، فلمَّا سَمِعَ نَبيُّ اللهِ شُعيبٌ خبرَ مُوسى عليهِ السلامُ طَمْأَنَهُ قائلا لَهُ: لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ القومِ الظالمينَ، لأنَّهُ لا سلطانَ لفرعونَ وجُنْدِهِ في أَرضِ مَدْيَنَ. يقولُ اللهُ تباركَ وتعالى: ﴿ فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ قَالَتۡ إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَاۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ القصص.

اللَّهُمَّ أَنْتَ القَوِيُّ
وَنَحْنُ الضُّعَفَاءُ فَارْحَمْ ضَعْفَنَا

اللهُ لا يُخيِّبُ القاصدينَ بِحقٍّ

الدعاءُ وهو السؤالُ أمرٌ عظيمٌ، ولهُ منـزلةٌ عاليةٌ في العبادةِ. الدعاءُ مفتاحُ الحاجةِ وملجأُ المضطرينَ ومتنفَّسُ ذوي المآربِ. وفي الدعاءِ إلى اللهِ دليلٌ على أنَّ مِنَ الكُرَبِ العظيمةِ ما لا يَفرجُها مالٌ ولا جاهٌ ولا سلطنةٌ ولا طِبٌّ وإنما يَفرجُها صحيحُ الافتقارِ والتوجهِ والالتجاءِ إلى من بيدِهِ النفعُ والضرُّ.

وأما رفعُ الأيدي فمستحبٌّ بالإجماعِ لأنَّ السماءَ قبلةُ الدعاءِ ومهبطُ الرحماتِ والبركاتِ. رفعُ اليدينِ، مدُّ اليدينِ معناهُ استنـزالُ الرحمةِ واللهُ لا يُخيبُ القاصدينَ بحقٍّ. الرسولُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ في بعضِ المراتِ لَما كان يدعو كان يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ إلى أسفلَ، وفي أكثرِ المراتِ كانَ يجعلُ كفَّيهِ إلى جهةِ السماءِ لأنَّ السماءَ قبلةُ الدعاءِ كما أنَّ الكعبةَ قِبلةُ الصلاةِ أي تنـزِلُ علينا البركةُ والرحمةُ منها. لذلكَ مطلوبٌ رفعُ الرأسِ إلى السماءِ عندَ الدعاءِ في غيرِ الصلاةِ لأنَّ هذا يكونُ تعرضًا للرحماتِ والبركاتِ التي تنـزلُ مِنَ السماءِ. هذا المطرُ مِنْ أينَ يأتي؟ مِنَ السماءِ يأتي المطرُ، هو غذاؤُنا، النباتُ ينبُتُ بالمطرِ والغذاءِ. قالَ تعالى:﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ الذاريات.

فهذا الداعي الذي دعا اللهَ تعالى وكان مادًّا يدَيهِ إلى السماءِ ليَستنْزلَ الرحماتِ مِنَ اللهِ تعالى فإذا مسحَ بعدَ إنهاءِ الدعاءِ باليدَينِ وجهَهُ معنى ذلكَ أنَّ هذهِ اليدَ نزلَتْ عليها رحماتٌ وبمسحِهِ وجهَهُ بهما أصابَتْ هذهِ الرحماتُ وجهَهُ.

وفي التشهدِ كانَ ﷺ يَحنِي إصبعَهُ إلى أسفلَ، كُلُّ هذا كانَ يفعلُهُ الرسولُ لِيُفْهِمَنَا أنَّ اللهَ موجودٌ لا كالموجوداتِ. ويدلُّ على ذلكَ أيضًا قولُهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ مِنْ طريقِ أبي هُريرةَ: «أَقربُ ما يكونُ العبدُ مِنْ ربِّهِ وهو ساجدٌ فأكثروا الدعاءَ»رواهُ مسلمٌ. فلو كانَ اللهُ عزَّ وجلَّ في جهةِ فوقٍ ما نهانا الرسولُ عَن رفعِ رؤوسِنا في الصلاةِ إلى جهةِ فوقٍ. كذلكَ يُؤخذُ مِنَ الحديثِ أنْ لو كانَ اللهُ في السماءِ لكانَ القائمُ أقربَ إلى اللهِ، فهذا

الحديثُ دليلٌ على أنَّ القُربَ المسافيَّ والبُعدَ المسافيَّ لا يجوزُ على اللهِ. لا يُقالُ قريبٌ بالمسافةِ ولا بَعيدٌ بالمسافةِ لأنَّ القُربَ المسافيَّ مِنْ صفاتِ الخلقِ. اللهُ تعالى موجودٌ قبلَ الزمانِ والمكانِ، لذلكَ لا يجوزُ اعتقادُ أنَّ الزمانَ يجري عليهِ أو أنَّهُ يَحُلُّ بالمكانِ. التغيُّرُ من صفاتِ الخلقِ، اللهُ لا يتغيرُ لا يتحولُ من صفةٍ إلى صفةٍ. ورفعُ الإصبعِ إلى السماءِ عندَ ذكرِ اللهِ ليسَ حرامًا، المؤمنُ المنـزِّهُ لا يَقْصِدُ بهِ إلا أنَّ اللهَ أعلمُ مِنْ كلِّ شيءٍ وأقدرُ مِنْ كُلِّ شيءٍ، يَفهَمُ مِنْ هذا الرفعِ رِفعةَ الدرجةِ ليسَ رفعةَ المسافةِ.

وفي حديثٍ ءاخرَ رواهُ مسلمٌ أيضًا : «إذا كانَ أحدُكم في صلاتِه فإنَّهُ يُناجِي ربَّهُ فلا يَبْصُقَنَّ في قبلتِه ولا عن يَمينِه فإنَّ ربَّهُ بينَه وبينَ قبلتِه». مناجاةُ اللهِ معناهُ الإقبالُ على اللهِ بدعائِه وتمجيدِه، المعنى أن المصليَ تجرَّدَ لمخاطبةِ ربِّهِ، انقطعَ عن مخاطبةِ الناسِ لمخاطبةِ اللهِ، فليسَ من الأدبِ مع اللهِ أن يَبْصُقَ أمامَ وجهِه، وليسَ معناهُ أن اللهَ هو بذاتِه تِلقاءَ وجهِه. وأما قولُه عليهِ الصلاةُ والسلامُ: «فإنَّ ربَّهُ بينَهُ وبينَ قِبلتِه» أي رحمةَ ربِّهِ أمامَهُ، أي الرحمةَ الخاصةَ التي تَنْزِلُ على المصلينَ.

اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا هُدَاةً مَهْدِيِّينَ
وثَبِّتْنَا عَلَى الحَقِّ، يا ربَّ العَالَمِينَ

سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بأخيكَ

لَما أمرَ اللهُ سبحانَهُ وتعالى عبدَهُ ونبيَّهُ موسى عليهِ السلامُ أنْ يذهبَ إلى فرعونَ ليدعُوَهُ إلى عبادةِ اللهِ وحدَهُ وتوحيدِهِ تعالى وتركِ الكفرِ والإشراكِ، طلبَ موسى عليهِ السلامُ من ربِّه أنْ يَبْعَثَ معَهُ أخاهُ هارونَ ليكونَ معَهُ في طاعةِ اللهِ ومُعِينًا لَهُ على تبليغِ الرسالةِ، فاستجابَ اللهُ تعالى دعوتَهُ، يقولُ اللهُ تباركَ وتعالى حكايةً عن موسى عليهِ السلامُ: ﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي (٢٩) هَٰرُونَ أَخِي (٣٠) ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي (٣١)﴾ طه - قَوِّ بِهِ ظَهْرِي - ﴿وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي (٣٢)﴾ طه اجعلْهُ شريكي في النبوةِ والرسالةِ ﴿كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا (٣٣)﴾ طه نصليَ لكَ ونُنَـزِّهَكَ تَسْبِيحًا ﴿وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا (٣٤)﴾ طه في الصلواتِ وخارجَها ﴿إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرٗا (٣٥)﴾ طه عالِمًا بأحوالِنا فأجابَهُ اللهُ تعالى حيثُ قالَ ﴿قَالَ قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ يَٰمُوسَىٰ (٣٦)﴾ طه.

ويقولُ تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلۡتُ مِنۡهُمۡ نَفۡسٗا فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ (٣٣) وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانٗا فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ رِدۡءٗا يُصَدِّقُنِيٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ (٣٤)﴾ القصص أي يُكَذِّبُوني - أي اجعلْهُ مَعِيَ مُعِينًا ورِدءًا ووزيرًا يشدُّ ظهري ويُقَوِّيني ويُساعِدُني على أداءِ رسالتي إليهم فإنَّهُ أفصحُ مني لسانًا وأَبلغُ بيانًا، واستجابَ اللهُ تعالى لنبيِّه موسى وقالَ لَهُ تعالى مُجيبًا لَهُ إلى سؤالِهِ: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ (٣٥)﴾ القصص سَنُقَوِّيكَ بِهِ ﴿وَنَجۡعَلُ لَكُمَا سُلۡطَٰنٗا (٣٥)﴾ القصص غلبةً وهيبةً في قلوبِ الأَعداءِ ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيۡكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآ (٣٥)﴾ القصصأي إذْهَبَا بآياتِنا ﴿أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلۡغَٰلِبُونَ (٣٥)﴾ القصص.

والحاصلُ أنَّ اللهَ تعالى استجابَ لموسى طلبَهُ وأخبرَهُ بأنَّهُ سيجعلُ معَهُ أخاهُ هارونَ مُعِينًا لَهُ وَوَزيرًا، وطَمْأَنَهُ بأنَّ فرعونَ وجندَهُ لن يَصِلوا إليهِ وإلى أخيهِ هارونَ بقتلٍ ولا ينالونَ منهما، قالَ تعالى: ﴿وَإِذۡ نَادَىٰ (١٠)﴾ طه أي دعا ﴿رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئۡتِ ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ (١٠) قَوۡمَ فِرۡعَوۡنَۚ أَلَا يَتَّقُونَ (١١) قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ (١٢) وَيَضِيقُ صَدۡرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرۡسِلۡ إِلَىٰ هَٰرُونَ (١٣) وَلَهُمۡ عَلَيَّ ذَنۢبٞ فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ (١٤) قَالَ كَلَّاۖ فَٱذۡهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسۡتَمِعُونَ (١٥)﴾ الشعراء

وقالَ تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ۝٢٥ وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي ۝٢٦ وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ۝٢٧ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ۝٢٨ ﴾ طه، أي حتى يفهموا عني بسرعةٍ، وما أصابَهُ مِنْ بُطْءٍ خفيفٍ في كلامِهِ لم يمنعْ عنهُ البيانَ، وكلامُهُ كانَ مُفْهِمًا لا يُبْدِلُ حرفًا بحرفٍ بل يتكلمُ على الصوابِ ولم يكن أَلْثَغَ.

قالَ المفسرونَ: إنَّ فرعونَ كانَ قد وضعَ موسى عليهِ السلامُ وهو طفلٌ صغيرٌ في حِجْرِه، فأخذَ موسى بلحيةِ فرعونَ ومدَّها بيدِهِ فَهَمَّ فرعونُ بقتلِهِ فخافَتْ عليهِ زوجتُهُ «ءاسيةُ» وقالَتْ لفرعونَ: إنَّهُ طفلٌ لا يَعقِلُ وسَأُرِيكَ بيانَ ذلكَ، قَدِّمْ إليهِ جمرتَينِ ولؤلؤتَينِ فإنِ اجتنَبَ الجمرتَينِ عَرَفْتَ أنَّهُ يعقِلُ فلما وضعَتِ الجمرتَينِ أمامَ مُوسى عليهِ السلامُ أخذَ موسى جمرةً مِنَ الجمرتَينِ ووضعَها في فمِهِ فأحرقَتْ لسانَهُ وصارَ فيهِ عقدةٌ خفيفةٌ مِنْ أَثرِ هذهِ الجمرةِ ولكنْ ما تركَتْ هذهِ الجمرةُ في لسانِهِ أن يكونَ كلامُهُ بعدَ ذلكَ مَعَ الناسِ غيرَ مُفْهِمٍ، بل كانَ عليهِ السلامُ يتكلمُ على الصوابِ.

وقد سألَ موسى عليهِ السلامُ ربَّهُ لما نزلَ عليهِ الوحيُ أن يُزيلَ هذهِ العقدةَ مِنْ لسانِهِ فاستجابَ اللهُ لهُ وأذهبَها عنهُ، قالَ اللهُ تعالى: حكايةً عن مُوسى عليهِ السلامُ: ﴿ وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ۝٢٧ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ۝٢٨ ﴾ طه. الحاصلُ أنَّ أنبياءَ اللهِ كلَّهُمْ أَصْحابُ خِلْقَةٍ سَوِيَّةٍ لم يكن فِيهِم ذُو عاهةٍ في خلقتِهِ ولم يكن فيهم أعرجُ ولا كسيحٌ ولا أعمى.

اللَّهُمَّ اشْرَحْ صُدُورَنَا وَنَوِّرْ قُلُوبَنَا
وافْتَحْ عَلَيْنَا فُتُوحَ العَارِفِينَ

ربِّ ابنِ لي بيتًا

أناسٌ ممن كانوا قبلَ أمةِ محمدٍ عرفوا قدرَ الآخرةِ فهانَتْ عليهم نفوسُهم، فصبروا وثبتوا ورأَوُا الكراماتِ عندَ الموتِ، ومنهم سيدُتنا ءاسيةُ بنتُ مزاحِمٍ رضيَ اللهُ عنها امرأةُ فرعونَ. كانت أغنى امرأةٍ في مصرَ، كانت تقيةً صالحةً تبعثُ بالمالِ لِمصالحِ المسلمينَ تُجاهدُ بِمالِها ليكونَ ذاكَ عونًا للمسلمينَ على نشرِ دينِ اللهِ.

فرعونُ هو الذي كانَ يقولُ عن نفسِهِ إنَّهُ ربُّ الناسِ ربُّ الخلقِ ربُّ العبادِ، كان يقولُ للناسِ: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ٢٤﴾ النازعات. كانَ أهلُ بلدِهِ يعبدونَهُ وءاسيةُ زوجتُهُ ما كانت تعبدُهُ، هي مؤمنةٌ مسلمةٌ لكن في ذلكَ الزمنِ كان حلالا أن تكونَ المسلمةُ تحتَ غيرِ مسلمٍ. كانت ءاسيةُ تكتمُ إيمانَها تُخفي إيمانَها وفرعونُ ما كان يعرفُ أنَّها مسلمةٌ مؤمنةٌ لا تعبدُهُ، ثم في الأخيرِ عرَفَ أنها لا تُؤمنُ بِهِ وأنها تعبدُ اللهَ ولا تعبدُهُ. لَما عرفَ ذلكَ صارَ يُعذِّبُها. ذاتَ يومٍ دخلَ عليها فرعونُ وأخبرَها بقتلِ الماشطةِ وأولادِها فقامَتْ ءاسيةُ وقالَت لهُ: «الويلُ لك ما أجرأَكَ على اللهِ». فقالَ: «لعلكِ اعتراكِ الجنونُ الذي اعترى الماشطةَ «. فقالت له: «ما بي جنونٌ ولكني ءامنتُ باللهِ تعالى ربِّ العالمينَ» عَرَفَ أنها مسلمةٌ، عرفَ أنَّها مؤمنةٌ. فأقسمَ فرعونُ أن تذوقَ الموتَ أو تكفرَ بإلهِ موسى، فقالت لهُ: «أما أن أكفرَ باللهِ فلا واللهِ».

فأمرَ فرعونُ بتعذيبِها، فمَدَّ بينَ يدَيْها أربعةَ أوتادٍ أي نصَبَ أربعةَ أوتادٍ في الأرضِ. وضعَ لها الأوتادَ الحديديةَ فكانت يدُها اليُمنى في وتدٍ واليُسرى في وتدٍ وكذلكَ رجلاها بالأوتادِ الحديديةِ، وكان يعذبُها ويضربُها تحتَ حرارةِ الشمسِ القويةِ، ولكنها دعَتْ وطلبَتْ منْ أحكمِ الحاكمِينَ من ربِّ العالمينَ مِنَ اللهِ تعالى أن يُخَلِّصَها مِنْ فرعونَ وعملِهِ: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ١١﴾ التحريم. ومعنى ﴿عِندَكَ﴾ أي في المكانِ المشرَّفِ عندَكَ، المكانِ الذي أنتَ شرّفتَهُ وهو الجنةُ ليسَ معناهُ أن يبنيَ اللهُ لها بيتًا في مكانٍ قريبٍ منهُ بالمسافةِ مُجاورٍ له بالمسافةِ. هي لا تعتقدُ أنَّ اللهَ جسمٌ لهُ مكانٌ بل تعتقدُ أنَّ اللهَ موجودٌ ليسَ جسمًا، منزهٌ عن المكانِ والجهةِ ومع هذا قالَتْ: ﴿عِندَكَ ١١﴾ التحريم.

على معنى أنَّ البيتَ الذي تَبنيهِ في مكانٍ مشرَّفٍ في مكانٍ شرّفتَهُ وهو الجنةُ. كشفَ اللهُ عن بصرِها، فرأَتْ بيتَها في الجنةِ، رأَتْ قصرَها في الجنةِ وهي في الأرضِ، وصارَتْ تنـزِلُ عليها الملائكةُ - ملائكةُ الرحمةِ - وتُظِلُّها من حرارةِ الشمسِ. عُذِّبَتْ حتى ماتَتْ هنيئًا لِمن يبني لآخرتِهِ، ويصبرُ على الثباتِ على الإيمانِ وعلى طاعةِ اللهِ عزَّ وجلَّ.

الأنبياءُ عليهمُ السلامُ هم أفضلُ البشرِ، والأولياءُ مِنَ البشرِ هُم بعدَ الأنبياءِ أفضلُ الناسِ إنْ كانَ رجلاً وإنْ كانَ امرأةً. كانَتْ مريمُ مِنَ الولياتِ وهِيَ خيرُ امرأةٍ على الإطلاقِ أفضلُ امرأةٍ عندَ اللهِ تعالى على الإطلاقِ. بعدَها بالفضلِ عندَ اللهِ فاطمةُ بنتُ محمدٍ ﷺ ثم خديجةُ بنتُ خويلدٍ زوجةُ سيدِنا محمدٍ ﷺ ثم بعدَ ذلكَ بالفضلِ ءاسيةُ امرأةُ فرعونَ. روى الحافظُ ابنُ عبدِ البرِّ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ:«خيرُ النساءِ مريمُ بنتُ عمرانَ ثم فاطمةُ بنتُ محمدٍ ثم خديجةُ بنتُ خويلدٍ ثم ءاسيةُ بنتُ مُزاحِمٍ». ورواهُ الإمامُ أحمدُ في المسندِ والطبرانيُّ في الكبيرِ. هؤلاءِ الأربعةُ مِنَ النساءِ هُنَّ أفضلُ النساءِ على الإطلاقِ، لا يأتي مَنْ هي أفضلُ منهن عندَ اللهِ.

اللَّهُمَّ أَصْلِحْ لَنَا دِينَنَا الَّذِي هُوَ عِصْمَةُ أَمْرِنَا
وَأَصْلِحْ لَنَا دُنْيَانَا التِي فِيهَا مَعَاشُنَا،
وَأَصْلِحْ لَنَا ءاخِرَتَنَا الَّتِي فِيهَا مَعَادُنَا،
وَاجْعَلِ الْحَيَاةَ زِيَادَةً لَنَا فِي كُلِّ خَيْرٍ
وَاجْعَلِ الْمَوْتَ رَاحَةً لَنَا مِنْ كُلِّ شَرٍّ

اللهُ أعطَاهُ سـرًا
غلَبهُمْ فِيهِ وَجعلهُمْ ينْقَادُون لأمرِه

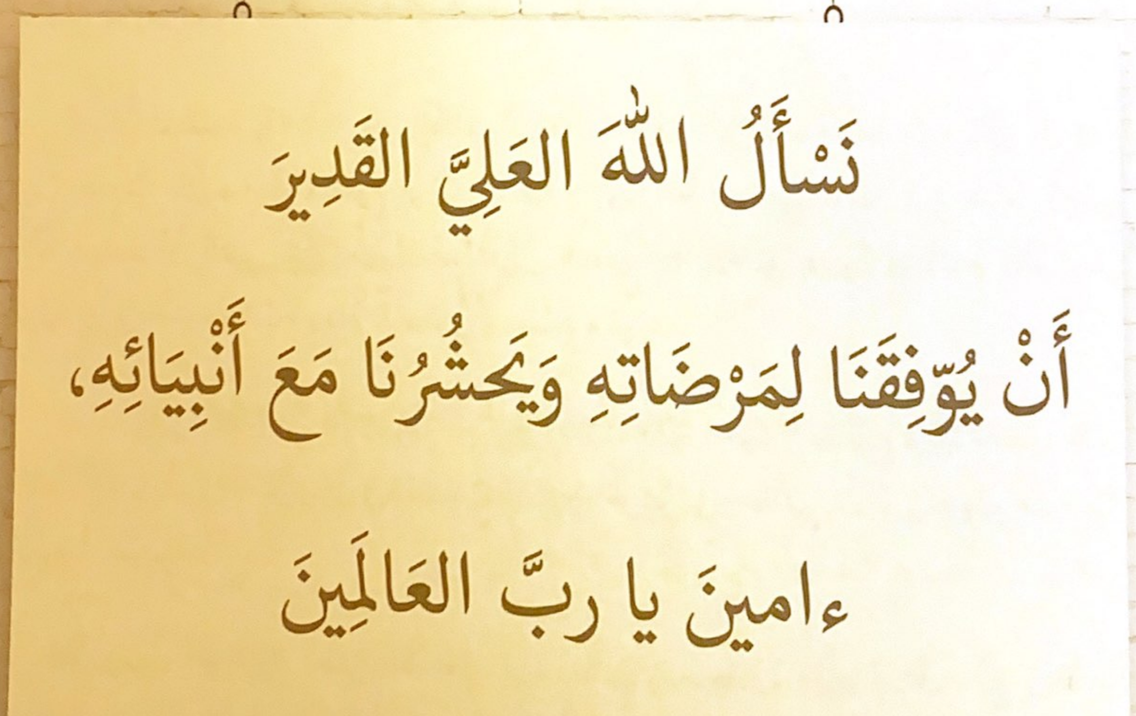
مما جاءَ في حقِ سيدِنَا سليمانَ منصوصًا في الحديثِ النبويّ ما أخرجَهُ الحاكمُ بإسنادٍ صحيحٍ عن ابنِ عباسٍ رضي اللهُ عنهُمَـا أنَّ نبيَّ اللهِ ﷺ قالَ: «إن سليمانَ نبيُ اللهِ كان كُلَّمَـا وَقَفَ في مُصلاّهُ نَبَتَتْ شجرةٌ فيقولُ لَـهَا ما اسمُكِ ؟ فتقولُ: كذا وكذا. فيقولُ: لأيِّ شيءٍ أنتِ؟ فتقول: لكذا وكذا. فإن كانَتْ غرسًا غُرِسَتْ فإن كانَتْ لدواءٍ كُتِبَ ذلك وبينما هو ذاتَ يومٍ قائمٌ يصلّـي نبتتْ شجرةٌ فسألَـهَا ما اسمُها فقَالَتْ: الـخُرنوبُ. فقالَ: ولأي شيء أنتِ ؟ فقالت: لِـخراب هذا البيتِ. ثم سألَ سليمانُ ربَّهُ أن يُعْمِيَ خَبَره عن الجن حتى يتبينَ الإنسُ أنَّ الجنَ لا يعلمُونَ الغيبَ، فتوكأَ على عصاهُ فأكلَتْ الأَرَضَةُ عصاهُ فوقعَ سليمانُ فتبينتْ الإنسُ أن الجنَّ لو كانوا يعلمُونَ الغيبَ ما لَبِثُوا حولا في العذابِ المهينِ فشَكَرَتْ الجنُّ الأَرضةَ فكانَت الجِنُّ تأتيهَا بالماءِ».

أخبرنا سيدُنَا محمدٌ بالوحيِ من اللهِ تعالى عن سيدِنَا سليمانَ أنهُ كان من شأنهِ حينَ يقفُ في مُصلاهُ تنبتُ لهُ شجرةٌ فيسألُـهَا ما اسـمُكِ فتقولُ كذا وكذا، فيقولُ لها لأيِّ شيءٍ أنتِ فتقولُ لكذا وكذا، فإن قالَتْ أنا مـما يُؤكلُ أمر بغرسِهَا وإن كانَتْ لدواءٍ، لمرضٍ من الأمراضِ كُتب ذلكَ أي كُتِبَ أنَّ هذهِ الشجرةَ التي اسـمُهَا كذا وكذا دواء لكذا وكذا.

ثم ذاتَ يومٍ كانَ يصلي فنبتتْ شجرةٌ فسألَـها عن اسمها فقالت: الـخُرنوبُ فقال لأي شيءٍ أنتِ؟ فقالت: لخرابِ هذا البيتِ أي إنّـي علامةٌ على وفاةِ صاحبِ هذا البيتِ فسأل اللهَ تعالى أن يُعْمِيَ خبرَ موتِهِ على الجنِ أي أن لا تعرفَ الجنُ بموتِهِ. فاتكأَ على عصاهُ وهو قائمٌ فظلَّ حولا كاملا فكانَتْ الجنُ تعملُ الأعمالَ الشاقةَ التي هو كلَّفَهُم بها من قطعِ الصخورِ العِظامِ وبناءِ مبانٍ كبيرةٍ وإخراجِ اللآلىءِ من البحارِ وغيرِ ذلكَ لأنَّ الشياطينَ كانُوا مقهورُونَ لسليمانَ. اللهُ تبارك وتعالى أعطاهُ سرًا غَلَبَهُم فيهِ وجَعَلَهُم ينقادُونَ لأمرِهِ، ولم تعلمِ الجنُّ أن سليمانَ قُبِضَ روحُهُ فظلُوا يشتغلونَ سنةً وهم يظنُونَ أن سليمانَ ما زالَ حَيًّا.

ثم هذهِ الحشرةُ التي تسمَى الأَرَضَة صارَتْ تأكلُ مِنْسَأَتَه أي عصاهُ فوقعَ سيدُنَا سليمانُ، عندئذٍ عَلِمَتْ الجنُّ أنَّ سليمانَ قد مَاتَ وعَلِمَ البشرُ أن الجنَّ لو كانُوا يعلمونَ الغيبَ ما ظَلُّوا حولا كاملا في العملِ الشاقِ الذي كَلَّفهم سليمانُ بهِ.

فخفَّ اعتقادُ البشرِ في الجنّ، كانَ هناكَ أناسٌ قبل ذلك يعتقدونَ في الجنّ اعتقادًا كبيرًا أنَّ الجنَّ تَعْلَمُ الغيبَ أي تَعْلَمُ المستقبلَ وتعلمُ خَفِيَّاتِ الأمورِ. فيجبُ على الإنسانِ أن يعتقدَ أنَّ الجنَّ لا يَعْلَمُونَ الغيبَ كما أنَّ البشرَ لا يَعْلَمُونَ الغيبَ. جميعُ الغيبِ لا يَعْلَمُهُ إلا اللهُ. إلا أنَّ اللهَ يُطلعُ الملائكةَ والأنبياءَ والأولياءَ على بعضِ الغَيْبِيَّاتِ. قالَ اللهُ تعالى ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۝٢٥٥﴾ البقرة.



اتَّقِ دعوةَ المظلومِ

قالَ رسولُ اللهِ ﷺ لصحابيٍّ اسمُهُ أبو جُرَيٍّ «إنِ امرؤٌ عـيـَّرَكَ بما ليسَ فيكَ فلا تُعَيِّرْهُ بما فيهِ»، فقالَ أبو جُرَيٍّ: «فما سَببْتُ بعد ذلكَ ولا دابّةً». أي أنَّهُ امتثلَ كلامَ رسولِ اللهِ عليهِ الصلاةُ والسلامُ. معنى الحديثِ أنتَ سامِحْهُ - ولا تعمَلْ معَهُ كما عَمِلَ معكَ فإنَّ هذا أفضلُ.

إذا مسلمٌ سَبَّ مُسلمًا فإنَّهُ إذا لـم يَرُدَّ عليهِ فهو أفضلُ عندَ اللهِ وإنْ ردَّ عليهِ بالمثلِ فليسَ عليهِ إثمٌ، يكونُ قد أَخَذَ حقَّهُ. لكنِ الذي لا يردُّ بالمثلِ أفضلُ، ولو عَيَّرَهُ الناسُ وظنوا بِهِ أنَّهُ جبانٌ فلا يُبالي، الإحسانُ إلى مَنْ يُسِـيْءُ إليكَ في الشرعِ مطلوبٌ.

أما إذا زادَ بالسبِّ كأنْ قالَ لهُ شخصٌ: «يا ظالمُ» فقالَ لهُ الآخرُ: «يا ظالمُ يا خبيثُ» فهذا تعدَّى لأنَّهُ زادَ، أما لو قالَ لَهُ «يا ظالمُ» يكونُ أخذَ حقَّهُ، لكنْ أكثرُ الناسِ لا يكتفُونَ بالمثلِ فهذا لا يجوزُ. ثم إنَّهُ إذا شتمَ شخصٌ شخصًا فلا يجوزُ للمشتومِ أن يقتَصَّ منهُ بالضربِ، إنما يجوزُ لَهُ أن يقتَصَّ منهُ بالمثلِ «السَّبُّ بالسَّبِّ».

ثم إنَّ المظلومَ إذا دعا على الظالمِ كأن قالَ «اللهُمَّ انتقِمْ منهُ» ما عليهِ إثمٌ، بل وردَ في الحديثِ بأنَّ دعوةَ المظلومِ لو كان كافرًا لا تُرَدُّ، اللهُ يستجيبُها. عن ابنِ عباسٍ رَضِـيَ اللهُ عنهما: أنَّ النبيَّ ﷺ بعثَ مُعاذًا إلى اليمنِ، فقالَ:«اتَّقِ دعوةَ المظلومِ فإنَّهُ ليسَ بينَها وبينَ اللهِ حجابٌ» رواهُ البُخاريُّ ومسلمٌ وغيرُهما.

كذلك رَوَى الطَّبَرَانِـيُّ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال:«اتَّقُوا دَعوَةَ الْمَظلُومِ فَإنَّهَا تُحمَلُ عَلَى الغَمَـامِ». ويَقُولُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ في الحديثِ القدسي:«وعِزَّتِـي وجَلَالِـي لأَنصُـرَنَّكِ ولو بَعدَ حِينٍ» حَدِيثٌ صَحِيحٌ.

قالَ رسولُ اللهِ ﷺ :«أنزلَ اللهُ على إبراهيمَ عشرَ صحائفَ وكلُّها أَمثالٌ - أي وَعظٌ - ، فيها: أيها المَلِكُ المُبتلى المُسَلَّطُ المغرورُ ما بعثْتُكَ لتجمعَ المالَ بعضَهُ إلى بعضٍ إنما بعثْتُكَ

لتَرُدَّ عني دعوةَ المظلومِ، فإني لا أردها ولو كانت مِنْ كافرٍ» رواهُ ابنُ حبانَ. فالكافرُ إذا ظُلِمَ إذا دعا اللهَ تعالى يَقْبَلُهُ، سواءٌ دعا على مسلمٍ أو غيرِ مسلمٍ.

وأما قولُهُ تعالى: ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾﴾ الرعد أي عبادتُهم في ضلالٍ فالكافرُ عبادتُهُ لا تنفعُ، لا تنفعُهُ في الآخرةِ لأنَّهُ ما دخلَ في الإسلامِ. ولكنَّ الدعاءَ على مَنْ ظلمَهُ اللهُ يقبلُهُ.

اللَّهُمَّ أعِنَّا عَلَى ذِكْرِكَ،
وَشُكْرِكَ، وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ
اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلامُ، وَمِنْكَ السَّلامُ،
تَبَارَكْتَ يَا ذَا الجَلالِ وَالإكْرَامْ

كانَ من عبادِ اللهِ الشاكرينَ
مع ما أعطاهُ اللهُ عز وجل من نعمٍ كثيرةٍ

كان سليمانُ عليه السلامُ، نبيًا من أنبياءِ اللهِ، ومع ذلك كان ملكًا من ملوكِ الأرضِ في زمانِه، وفوقَ كلّ هذا فقد مَنَّ اللهُ عليهِ، وعَلَّمَهُ لغةَ الحيوانِ والطيرِ، فكانَ يفهمُ ما تتخاطبُ به هذه الحيواناتُ والطيورُ ...

يقول الله تعالى ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ ﴾ النمل. في هذه الآيةِ اعترافُ داودَ وسليمانَ عليهما الصلاةُ السلامُ بنعمةِ اللهِ عليهما بالعلمِ النافعِ، ونسبتُهُم الفضلَ إلى اللهِ تعالى. وفي بيانِ هذا الفضلِ: ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَـٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ ﴾ النمل. هذا هو التواضعُ للهِ، ها هو سليمانُ الذي عَلَّمَهُ اللهُ منطقَ الطيرِ فضلا عن أَلسُنِ الخلقِ، وفهم كلماتِ النملِ، وآتاهُ اللهُ من كلّ شيءٍ يَرُدُّ الفضلَ لصاحبِ الفضلِ جل وعلا، ويعترفُ بنعمةِ اللهِ عليهِ، وفضلِهِ لديهِ.

يقولُ اللهُ تبارك وتعالى: ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَـٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ النمل يُخبرنا اللهُ تبارك وتعالى عن عبدِهِ ونبيِهِ سليمانَ عليهِ السلامُ أنه رَكِبَ يومًا في جيشِهِ المؤلفِ من الجنّ والإنسِ والطيرِ ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَـٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ النمل.

فهذهِ النملةُ تَكَلَّمَتْ بصوتٍ أَمَرَتْ فيهِ أُمَّةَ النملِ في ذلكَ الوادِي أنْ يدخلُوا مساكنَهُم حذرًا من أن يَحْطِمَهُم سليمانُ عليهِ السلامُ وجنودُهُ أثناءَ سَيرِهِم واعتذَرَتْ عن سليمانَ وجنودِهِ بعدمِ الشعورِ، وقد أَلْـهَمَ اللهُ عز وجل تلك النملةَ معرفةَ نبيهِ سليمانَ عليه

السلام كما أَلْـهَمَ النملَ كثيرًا من مصالِحِهَا، فمن ذلك أنها عندما تَـجِدُ حبوبًا رطبة تَـحملُهَا وتُـجَفِّـفُهَا في الهواءِ الطَلقِ وتحتَ أشعةِ الشمسِ ثم تقومُ بعد ذلك بتدخيرِهَا في مساكنِهَا تحتَ الأرضِ. ومن ذلكَ أنها تكسر كلَّ حبةٍ تدخرُهَا قطعتَينِ لئلا تنبتَ، إلا الكزبرةَ فإنَّـها تكسِـرُهَا أربعَ قطعٍ لئلا تَنْبُتَ، لأنَّ الكزبرةَ تنبتُ إذا كسرَتْ قِطعتَينِ ولا تَنْبُتُ إذا كُسِـرَتْ أربعَ قِطَعٍ، فسبحانَ مَنْ أَلْـهَمَهَا هذا، وسبحانَ الخالقِ الحكيمِ.

والمقصودُ أنَّ سليمانَ عليه الصلاةُ والسلامُ سَـمِعَ كلامَ النملةِ وفَهِمَ ما خاطبَتْ به تلك النملةُ أُمَّةَ النملِ وما أَمَرَتْ بهِ وحَذَّرَتْ، ﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا ﴿١٩﴾ ﴾ النمل وتبسَّمَ من قولِـهَا على وجهِ الفرحِ والسرورِ بـما أطلعَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ عليهِ من كلامِ النملةِ دونَ غيرِهِ، ولهذا قالَ متضرعًا إلى خالقِهِ: ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ ﴿١٩﴾ ﴾ النمل أي أَلْـهِمْنِـي ﴿ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ النمل فطَلَبَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ من ربِهِ وخالقِهِ أن يُقيضَهُ للشكرِ على ما أنعمَ بِهِ عليه وعلى والديهِ، وعلى ما خصَّهُ به من نِعَمٍ دونَ غيرِهِ من الناسِ وأن يُيَسِّـر له العملَ الصالحَ، وأن يحشرَهُ إذا توفاه مع عبادِهِ الصالحينَ.

وقد استجابَ اللهُ تعالى دعاءَ عبدِهِ سليمانَ بنِ داودَ عليهِمَـا السلامُ فكان من عبادِ اللهِ الشاكرينَ مع ما أعطاه اللهُ عز وجل من نِعَمٍ كثيرةٍ ومُلكًا لا ينبغِي لأحدٍ من بعدِهِ.

اللَّهُمَّ أَغْنِنَا بِحَلَالِكَ عَنْ حَرَامِكَ

وَبِطَاعَتِكَ عَن مَعْصِيَتِكَ وَبِفَضْلِكَ عَمَّنْ سِوَاكَ

اللجوءُ إلى اللهِ

العبدُ المذنبُ لو تابَ ولجأَ إلى اللهِ تعالى بالدعاءِ والتوبةِ قد يُكْرِمُهُ اللهُ بصلاحِ الحالِ بعدَ التوبةِ الصادقةِ، فقد ذُكِرَ أنَّهُ كانتِ امرأةٌ بَغْيٌ في زمنِ بني إسرائيلَ فائقةُ الحسنِ في جمالِهَا، لا تُمَكِّنُ مِنْ نفسِها إلا بمائةِ دينارٍ وأنَّهُ أبصرَها رجلٌ فأعجَبَتْهُ، فذهبَ يعمَلُ حتى جمعَ مائةَ دينارٍ. ثم جاءَ إليها وقالَ: «إنَّكِ أعجَبْتِني» فانطلقتُ فعملتُ بيدِي حتى جمعتُ لكِ مائةَ دينارٍ.

فقالتْ لَهْ: ادخُلْ، فدخَلَ وكانَ لها سريرٌ طُلِيَ ذهبًا فجلسَتْ على سريرِها ثم قالتْ له «هُلمّ»، فما أنْ جَلسَ منها مجلسَ الرجلِ مِنَ المرأةِ ذكرَ مَقامَهُ بين يدَي اللهِ تعالى فقالَ لها: اترُكِيني أخرجُ ولكِ المائةُ دينارٍ.

فقالتْ: ما بدا لكَ وقد زَعَمْتَ أني أَعْجَبْتُكَ ولَمَّا قدرْتَ عليَّ فعلتَ الذي فعلتَ.

قالَ: خوفًا من اللهِ ومن مَقامِي بين يدَيهِ، وأنتِ الآن من أبغضِ الناسِ إِلَّي ودعا اللهَ تائبًا من ذنبِه.

فقالت: إن كنتَ صادقًا فما لي زوجٌ غيرُك. فقال: دعِيني أخرجُ، فقالت: لا، إلا أن تجعلَ لي أنَّكَ تتزوجُ بي.

فما كانَ منهُ إلا أنْ خرجَ إلى بلدِهِ وارتحلَتْ وهي نادمةٌ طلبتْ مِنَ اللهِ المغفرةَ على ما كانَ منها حتى قَدِمَتْ إلى بلدِهِ. فسألتْ عن اسمِهِ ومنـزلِه فدُلَّتْ عليه وكانت تُعرفُ بالملكةِ.

فقيلَ لَهُ: إنَّ الملكةَ قد جاءتك، فلما رءاها شَهَقَ شهقةً فماتَ رحمَهُ اللهُ فسقطَ بين يدَيْها.

فقالت: أما هذا فقد فاتني، فسألَتْ هل لهُ من قريبٍ؟ قالوا: أخوهُ فقيرٌ، فتزوجتْهُ وولدتْ منهُ سبعةَ أبناءٍ،كلُّهم كانوا على الصلاحِ. إن كنتَ تعلمُ أن الموتَ لا بُدَّ ءاتٍ فالاستعدادُ لهُ أولى مِنَ الاستعدادِ للحياة، فإذا فعلتَ ذلكَ سُررتَ عندَ الموتِ سرورًا لا نهايةَ لهُ.

كلُّ نَفَسٍ من أنفاسِكَ جوهرةٌ لا قيمةَ لها لأنَّهُ إذا مضى نفسٌ فلا عودَ لهُ. فلا تفرحْ إلا بعلمٍ أو عملٍ صالحٍ هما رفيقاك ويَصْحَبَانِكَ في القبرِ حيثُ يتخلفُ عنكَ أهلُكَ وأصحابُكَ وولدُكَ.

واصبِرْ على طاعةِ اللهِ ولو كصبرِ المريضِ على مرارةِ الدواءِ انتظارًا للشفاءِ، وقُلْ لنفسِكَ أصبرُ اليومَ فلعلي أموتُ الليلةَ، وأصبرُ الليلةَ فلعلي أموتُ غدًا. وأنت تعلمُ أن الموتَ لا يأتي في وقتٍ مخصوصٍ وحالٍ مخصوصٍ.

ولا تَكُنْ مِنَ الذينَ يفرحونَ بكثرةِ أموالِهم مع نقْصِ أعمالِهم، فلا خيرَ في مالٍ يزيدُ وعُمُرٍ يَنْقُصُ. اجعَلْ لكُلِّ وقتٍ عَمَلا تَعْمَلُهُ، وقتُكَ عُمُرُكَ وهو رأسُمالِكَ، وعليهِ تجارتُكَ للوصولِ لنعيمِ دارِ الأبدِ.

اللَّهُمَّ نَقِّنَا مِنَ الذُّنُوبِ وَالخَطَايَا
كَمَا يُنَقَّى الثَّوْبُ الأَبْيَضُ مِنَ الدَّنَسِ

مَلَكَ الدنيا الشرقَ والغربَ

لقد ءاتى اللهُ سليمانَ عليهِ السلامُ مُلْكًا عَظِيمًا لم يُؤْتِهِ أَحدًا مِنْ قبلِهِ ولنْ يُعْطيَهُ لأحدٍ مِنْ بعدِهِ إلى يومِ القيامةِ فقد استجابَ اللهُ تعالى لدعوةِ سليمانَ ﴿رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ ٣٥﴾ ص.

كانَ لهُ عندَ اللهِ جاهٌ عظيمٌ، اللهُ تعالى أعطاهُ مُلْكًا لا يَنْبَغي لأحدٍ من بَعْدِه، كانَ سليمانُ عليهِ السلامُ مَلَكَ الدنيا الشرقَ والغربَ. كانَ نبيُّ اللهِ سليمانُ في عصرِهِ خَضَعَتْ لَهُ الدنيا، ما كان في الدنيا مَلِكٌ يُقاوِمُهُ ويتمردُ عليهِ. اللهُ تعالى أعطاهُ قوةً وأعطاهُ النبوةَ وأعطاهُ الـمُلكَ، وجعلَ لَهُ تـمكينًا في الأرضِ. هذه القوةُ التي أعطاهُ اللهُ إياها هذا الـمُلكُ العظيمُ الذي أعطاهُ اللهُ إياهُ ما شَغَلَهُ عن طاعةِ اللهِ.

كما أَنَّ اللهَ عزَّ وجَلَّ أكرمَهُ بِنِعَمٍ كثيرةٍ وخَصَّهُ بِـمَزايَا رائعةٍ كانتْ عُنْوانًا لِلْعَظَمَةِ والـمجْدِ ومَظْهَرًا مِنْ مظاهرِ الـمُلْكِ العظيمِ والجاهِ الكبيرِ والدَّرَجَةِ العاليةِ عندَ اللهِ سبْحانَهُ. فقد سَخَّرَ اللهُ لَهُ أمرًا لم يُسَخِّرْهُ لأحدٍ مِنْ قبلِهِ ولا بعدِهِ، سَخَّرَ اللهُ لهُ الجنَّ، حتى الشياطينُ غلبَهم.

كانَ يأمرُهم يُكَلِّفُهم بأعمالٍ شاقةٍ ومَنْ لم يُطِعْهُ اللهُ تعالى يُنْزِلُ بِهِ عذابًا في الدنيا، مع كونِهم كفارًا كانوا يُطِيعُونَهُ فلذلكَ كانتِ الشياطينُ العفاريتُ التي تطيرُ في الدقيقةِ مِنَ المشرقِ إلى المغربِ تُطيعُ سليمانَ.

إذا أحدٌ منهم خالفَ أمرَهُ يُحَطِّمُهُ اللهُ تعالى، ينزِلُ اللهُ عليهِ عذابًا فيتحطَّمُ، اللهُ يُهْلِكُهُ في الحالِ، فكانَ لديهِ عليهِ السلامُ القدرةَ على حبسِ الجنِّ الذينَ لا يُطيعُونَ أمرَهُ وتقييدِهِم بالسلاسلِ. ومن يعصِ سليمانَ يُعذبْهُ اللهُ تعالى لذلك كانوا يستجيبونَ لأوامرِهِ. كانتِ الجنُّ تغوصُ لَهُ في أعماقِ البحارِ وتستخرجُ لَهُ الجواهرَ واللّآلئَ مِنْ قعورِ

البحارِ، ويُقَطِّعُونَ لَهُ الصخورَ الكبارَ للبناءِ ويبنونَ لَهُ مبانيَ فخمةً. وكانت مدينةُ تدمرَ في بَرِّ الشامِ مستقرَّ مُلكِ سيدِنا سليمانَ عليهِ السلامُ وقد بناها لَهُ الجنُّ كما قِيلَ مِنَ الحجارةِ الضخمةِ العريضةِ والأعمدةِ العاليةِ والرخامِ الأَبيضِ والأَصفرِ.

كما سخَّرَ اللهُ تعالى لنبيِّهِ سُليمانَ عليهِ السّلامُ الرّيحَ فكانَت تَنْقُلُهُ وجيشَهُ إلى أيِّ أطرافِ الدّنيا شاءَ. بسَاطُ الريحِ يحمِلُهُ صباحًا إلى مسافةِ شهرٍ ثمّ بعدَ الظُّهْرِ يَرُدُّهُ، فقد كان لهذا البساطِ سرعةُ انتقالٍ كبيرةٌ جدًا. كان لديهِ بساطٌ خشبيٌّ ضخمٌ جدًّا وكانَ يأمرُ الجيشَ بأن يركبَ على هذا الخشبِ ويحملَ كُلَّ ما يحتاجُ ويأمرُ الريحَ بأن ترفعَ البِساطَ وتنقلَهُم للمكانِ المطلوبِ فتضعَهُ في أيِّ مكانٍ شاءَ بإذنِ اللهِ تعالى.

ومن نِعَمِ اللهِ تعالى على سُليمانَ عليهِ السّلامُ أنَّ جنودَهُ كانوا مِن الجِنِّ والإنْسِ والطَّيرِ، وكان سليمانُ عليهِ السّلامُ قَدْ نَظَّمَ لهمْ أعمالَهُم ورَتَّبَ لهُمْ شئونَهُمْ، فكانَ إذا خَرَجَ خَرَجُوا مَعَهُ في موكِبٍ حافِلٍ مَهيبٍ يُحيطُ بهِ الجُنْدُ والخَدَمُ مِنْ كلِّ جانِبٍ؛ فالإنْسُ والجِنُّ يسيرونَ معَهُ سامِعِينَ مُطِيعينَ، والطَيْـرُ بأنواعِها تُظِلُّهُ بأَجْنِحَتِها مِنَ الحَرِّ وغيرِهِ.

وهذا كُلُّهُ مِنْ فَضْلِ اللهِ على عبْدِهِ ونَبِيِّهِ سُلَيْمانَ عليهِ السلامُ الذي كانَ عبْدًا مُطيعًا زاهدًا، طعامُهُ خُبْزُ الشعيرِ، أَوَّابًا داعِيًا إلى عبادةِ اللهِ وحدَهُ لا شريكَ لهُ، وكانَ مِنْ عبادِ اللهِ الشاكرينَ فهوَ القائِلُ للفَلاَّحِ الذي نَظَرَ إليهِ وهوَ على بِساطِ الرّيحِ وقالَ: «إنَّ اللهَ أعْطى ءالَ داودَ مُلْكًا عَظيمًا» فرجَعَ إليهِ وقالَ لهُ: «لَتَسْبيحةٌ واحدةٌ يَقْبَلُها اللهُ منكَ خيرٌ لكَ مِنَ الدُّنْيا وما فيها» .

كذلك أعطاهُ اللهُ عزَّ وجَلَّ عِلْمًـا بالقَضاءِ وتسبيحِ الجبالِ، وَقَدْ علَّمَهُ اللهُ تبارَكَ وتعالى مَنْطِقَ الطَيْرِ ولُغَتَهُ وسائِرَ لُغاتِ الحيواناتِ، فكانَ يَفهَمُ عنْها ما لا يَفْهَمُهُ سائِرُ النَّاسِ. وكانَ لَهُ ألفُ بيتٍ مِنْ زجاجٍ، وكانَ يذبَحُ كُلَّ يومٍ مائةَ ألفِ شاةٍ وثلاثينَ ألفَ بقرةٍ ليُطعِمَ الناسَ، أما لنفسِهِ كانَ يأكلُ خبزَ الشعيرِ باللبنِ الحامضِ. وغيرُ هذا ممّـا أنعَمَ اللهُ بهِ عليهِ.

هذا سليمانُ عليهِ السلامُ الذي أعطاهُ اللهُ هذا الملكَ كانَ يأكلُ خبزَ الشعيرِ زُهدًا وإيثارًا للآخرةِ، إيثارًا لِما عندَ اللهِ. وهكذا أنبياءُ اللهِ وأولياءُ اللهِ مَعَ استطاعتِهم أن يأكلوا لذائذَ الطعامِ.

اللهُ تباركَ وتعالى يُحبُّ لعبادِهِ أن يتركوا التنعمَ لكنْ هؤلاءِ الأنبياءُ والأولياءُ يتركونَ التنعمَ مِنْ غيرِ أن يُحَرِّمُوهُ، لأنَّ في ذلكَ حكمةً، وهو أنَّ الذي لا يُعَوِّدُ نفسَهُ التنعمَ يظَلُّ قلبُهُ مُشْغفًا على الفقيرِ، شاعرًا في حاجاتِ المحتاجينَ والفقراءِ. أما الذي يَسترسِلُ في الملذاتِ والتنعمِ فينسى.

اللَّهُمَّ اجْعَلِ الْحَيَاةَ زِيَادَةً لَنَا فِي كُلِّ خَيْرٍ

وَاجْعَلِ الْمَوْتَ رَاحَةً لَنَا مِنْ كُلِّ شَرٍّ

إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ

أيولدُ لي
وعمري مائةٌ وعِشرُونَ سنةً

سعى نبيُّ اللهِ زكريا إلى طَلَبِ الولدِ، وقد احتاجَ إليهِ لِكِبَرِ سِنِّهِ، ووَهْنِ عَظْمِه، ولأنَّهُ خَشِـيَ أن يضعُفَ أمرُ دينِ الإسلامِ إذا هو ماتَ، لأن أقاربَهُ وبني عمِّهِ وعُصْبَتَهُ كان فيهم مَنْ أهملَ الدينَ وسعى فسادًا في بني إسرائيلَ، فخافَ أن لا يُحسِنوا الخلافةَ بعدَهُ. فدعا زكريا ربَّهُ: ﴿ فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا ٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنۡ ءَالِ يَعۡقُوبَۖ وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيّٗا ٦ ﴾ مريم الآيةَ ليس معناها إرثَ المالِ بل إرثُ النبوةِ والعلمِ. بين زكريا ويعقوبَ زمنٌ طويلٌ.

هل يُمكنُ أن يقولَ إني أرجو الولدَ الذي ترزقني يا ربُّ أن يكونَ وَرِثَ مِنْ ءالِ يعقوبَ؟! لا، إنما معناهُ وَرِثَ علمَ الدينِ الذي كانَ عليهِ أولئكَ. وقالَ تعالى إخبارًا عنهُ أيضًا: ﴿ رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ٣٨ ﴾ آل عمران. فأجابَ اللهُ دعاءَهُ ورزقَهُ على الكِـبَـرِ كما رزقَ إبراهيمَ على الكِـبَـرِ.

وبعدما دعا زكريا عليهِ السلامُ ربَّهُ أن يرزقَهُ ولدًا صالحًا تقيًّا بَشَّـرَهُ اللهُ تباركَ وتعالى بواسطةِ الملائكةِ، فبينما هو قائمٌ يُصلي في محرابِ المسجدِ أتاهُ سيدُنا جبريلُ عليه السلام يلبَسُ البياضَ ويحملُ البُشرى برفقتِهِ الملائكةُ، وأحدقوا بسيدِنا زكريا قائلينَ لهُ: ﴿ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ ٧ ﴾ مريم وسُمِّي بهذا الاسمِ لأنَّ اللهَ أحياهُ بينَ شيخٍ وامرأةٍ عجوزٍ ولم يُسَمَّ أحدٌ قبلَ يَحْيى بهذا الاسمِ قالَ تعالى: ﴿ لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا ٧ ﴾ مريم.

فلما بُشِّـرَ بالولدِ تساءلَ مُستخبرًا لا مُستنكرًا عن كيفيّةِ الأمرِ الذي يكونُ منهُ الولدُ، شرعَ يستعلمُ على وجهِ التعجبِ وجودَ الولدِ لَهُ وليسَ على وجهِ الشكِّ في قدرةِ اللهِ تعالى على ذلكَ، فالأنبياءُ كلُّهم عارفونَ باللهِ تعالى ويعلمُون يقينًا أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ على كلِّ شيءٍ قديرٌ.

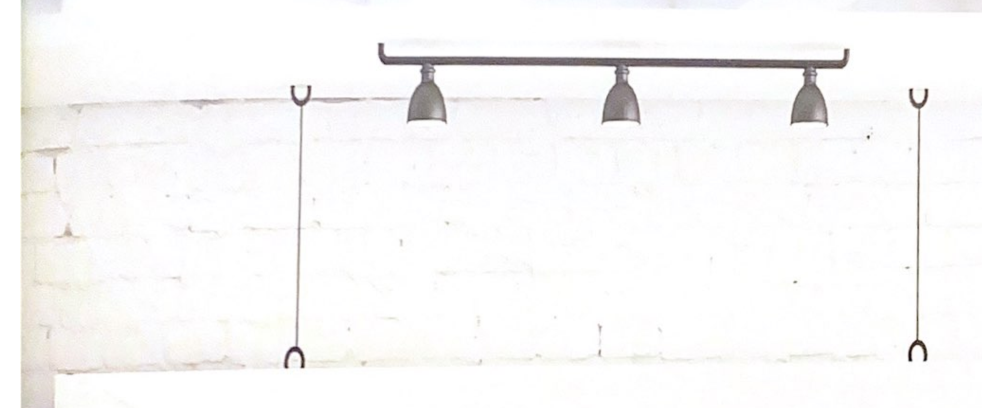
فقال: ربِّ كيفَ يكونُ لي غلامٌ وقد بَلَغَنيَ الكِبَرُ وامرأتي عاقرٌ، أيولدُ لي وعمري مائةٌ وعِشرُونَ سنةً، وامرأتي عاقرٌ قد بلغتْ سنَّ مَنْ لا تلدُ وعمرُها ثمانيةٌ وتِسْعُونَ سنةً؟ أم أُعادُ أنا وامرأتي إلى سنِّ الشبابِ وهيئةِ مَنْ يُولَدُ لَهُ؟ أم أتزوَّجُ مِنْ غيرِها وأُرْزَقُ بولدٍ؟ فأُجيبَ بأنَّهُ يولدُ لَهُ على هذه الحالِ من زوجتِه إيشَاعَ أختِ السيدةِ مريمَ، فاللهُ يفعلُ ما يشاءُ ولا يُعجِزُه شيءٌ. قالَ لهُ الملَكُ الذي يُوحِي إليهِ بأمرِ اللهِ ما أخبرَ اللهُ بِهِ في قولِهِ: ﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾ ﴾ مريم، أي أنَّ إيجادَ الولدِ منكَ ومن زوجتِكَ هذه لا مِنْ غيرِها هيّنٌ يسيرٌ وسهلٌ على اللهِ تعالى الذي هو على كلِّ شيءٍ قديرٌ.

ثم طلبَ زكريا مِنْ ربِّه أن يجعلَ لهُ علامةً على وجودِ الحَمْلِ ﴿ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً ﴿١٠﴾ ﴾ مريم تدلُّ على وقوعِه عندَ زوجتِهِ لزيادةِ اطمئنانِه واستعجالا للسرورِ، فأجابَهُ اللهُ أنَّ علامتَهُ ستكونُ أن لا يُكلِّمَ الناسَ ثلاثةَ أيامٍ إلا رمزًا من غيرِ علةٍ ولا خرسٍ ولا مرضٍ ولا ءافةٍ وسيُحْبَسُ لسانُه إلا عن ذكرِ اللهِ وشكرِهِ على قضاءِ حقِّ تلكَ النعمةِ العظيمةِ. قالَ اللهُ تعالى: ﴿ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَـٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ ﴾ مريم.

ولَما حَمَلتْ إيشَاعُ بيَحْيى خرجَ زكريا مِنْ مِحرابِه صبيحةَ تلكَ الليلةِ، وهو لا يتكلمُ فأشارَ إلى الناسِ بالرمْزِ والإشارةِ وليسَ بالكلامِ، فعلِمُوا أنَّهُ قد حصلَ ما بُشِّرَ بِهِ، وكان في هذا الأمرِ معجزةٌ لَهُ وهي قدرتُهُ على التكلُّمِ بالتسبيحِ والذكرِ بشكلٍ جيدٍ مع عدمِ التكلمِ مَعَ الناسِ بأمورِ الدنيا طيلةَ الأيامِ الثلاثةِ، وإخبارُهُ بأنَّهُ متى ما حصلتْ هذه الحالةُ من منعِ الكلامِ الدنيوي فقد حصلَ الحملُ بالولدِ عندَ زوجتِهِ وهذا ما حصلَ.

ولَما حانَ وقتُ الولادةِ وَلَدتْ إيشَاعُ ابنَها يَحْيى عليهِ السلامُ طاهرًا مباركًا، وكان يُضيءُ البيتَ لنورِه وحُسنِ وجهِه وجمالِه عليهِ السلامُ. ولما كَبِرَ يَحْيى وبلغَ سبعَ سنينَ، علَّمَه والدُهُ التوراةَ وأرسلَهُ إلى بيتِ المقدسِ مُحرَّرًا أي متفرِّغًا لعبادةِ اللهِ وخدمةِ بيتِ المقدسِ، وكان يُصلي ويصومُ في حالِ طفولتِه، ويدعو إلى اللهِ بقوةٍ وجدٍّ، وكان الصبيانُ يقولونَ لهُ في صِغَرِه: اذهبْ بنا نلعبُ، فيقولُ: ما لِلَّعِبِ خُلِقْنا.

وكان طعامُهُ العُشْبَ المباحَ، ولباسُهُ الوبَرَ، وكانَ عليهِ السلامُ حسنَ الوجهِ، كثيرَ العبادةِ قويًا في طاعةِ اللهِ، ومنذُ صِغَرِه كان يَعِظُ الناسَ ويقفُ لهم في أعيادِهم وجُمَعِهم يدعُوهم إلى دينِ الإسلامِ ويعلِّمُهُمُ الأحكامَ. ولَما كَبُرَ كان قد اشتهرَ بقوةِ العلمِ، حتى أحصى مسائلَ التوراةِ الأصليةِ وأحاطَ بأصولِها وفروعِها، وعُرِفَ بين الناسِ أنَّهُ جريءٌ في الحقِّ، شديدٌ على الباطلِ، لا يخشى في اللهِ لومَةَ لائمٍ، ولا صولَةَ عاتٍ ظالمٍ.



اللَّهُمَّ عَلِّمْنَا مَا جَهِلْنَا وذَكِّرْنَا مَا نَسِينَا

واجْعَلِ القُرْءانَ رَبِيعَ قُلُوبِنَا ونُورًا لأَبْصَارِنَا وَجَوَارِحِنَا

وَتَوَفَّنَا عَلَى هَدْيِهِ وَأَكْرِمْنَا بِحِفْظِهِ وَاحْفَظْنَا بِبَرَكَتِهِ

إِنَّكَ سَمِيعٌ قَرِيبٌ مجُيبُ الدّعَوات

سرعةُ إجابةِ الدعاءِ والإنجاحِ

هناكَ حديثٌ قدسيٌّ يُغالِطُ بعضُ الناسِ في تفسيرِهِ يأخذونَ معناهُ على الظاهرِ، ولهذا الحديثِ معنًى يليقُ بجلالِ اللهِ تعالى سبحانَهُ جلَّ شأنُهُ وتنـزيهِهِ عن النقصِ وصفاتِ المخلوقينَ.

وهذا الحديثُ عن أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ اللهَ تَعالَى قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَىءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَلَئِنْ سَأَلَنِي لأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ» رواهُ البخاريُّ في الصحيحِ. وقد فسَّرَ هذا الحديثَ الشريفَ الشيخُ أبو عثمانَ الحِيريُّ رحمَهُ اللهُ أنَّهُ سُئِلَ عن معنى هذا الخبرِ فقالَ: «معناهُ كنتُ أسرعَ إلى قضاءِ حوائجِهِ من سمعِه في الاستماعِ، وبصرِهِ في النظرِ، ويدِهِ في اللمسِ، ورجلِهِ في المشيِ» رواهُ البيهقيُّ في كتابِ الزهدِ الكبيرِ.

وقالَ أبو سليمانَ الخطابيُّ رحمَهُ اللهُ: والمعنى - واللهُ أعلمُ - توفيقُهُ في الأعمالِ التي يُباشِرُها بهذِهِ الأعضاءِ وتيسيرُ المحبةِ لهُ فيها فيحفظُ جوارحَهُ عليهِ ويعصمُهُ عَنْ مُواقعةِ ما يكرهُ اللهُ مِنْ إصغاءٍ إلى اللهوِ بسمعِهِ، ونظرٍ إلى ما نهى عنهُ مِنَ اللهوِ ببصرِهِ، وبطشٍ إلى ما لا يحِلُّ لَهُ بيدِهِ، وسعيٍ في الباطلِ برجلِهِ، وقد يكونُ معناهُ سرعةَ إجابةِ الدعاءِ والإنجاحِ، وذلكَ أنَّ مساعيَ الإنسانِ إنما تكونُ بهذِهِ الجوارحِ الأربعِ» اهـ رواهُ البيهقيُّ في كتابِ الأسماءِ والصفاتِ.

فاللهُ سبحانَهُ وتعالى يُكْرِمُ عبدَهُ الصالحَ بأنْ يحفَظَ جوارحَهُ مِنْ إتيانِ المعاصي المُوبقةِ، ويُكرِمُهُ بالكراماتِ الجليلةِ في هذهِ الجوارحِ لشدةِ طاعةِ هذا العبدِ وشَغَفِهِ بحبِّ مولاهُ فيُعطيهِ سبحانَهُ قوةً في البصرِ فيرى الشىءَ البعيدَ وكأنَّهُ أمامَهُ، وقوةً في السمعِ يسمعُ بها الكلامَ البعيدَ وكأنَّهُ قربَهُ، وقوةً في المشيِ فيطوي اللهُ لهُ الأرضَ فيَقْطَعُ المسافاتِ الطويلةِ بدقائقَ وبمهلةٍ بسيطةٍ جدًا، وقوةً في اليدِ خارقةً للعادةِ.

ولذا عندما كانَ سيدُنا عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ على المنبرِ يخطبُ في المدينةِ المنورةِ على ساكنِها أفضلُ الصلاةُ والسلامُ كان جيشُ المسلمينَ في نهاوندَ في بلادِ فارسَ وقد أحاطَ بهِ المشركونَ بالمكيدةِ والحِيلةِ للانقضاضِ عليهِ فكاشفَ اللهُ عمرَ حالةَ المسلمينَ فرءاهم كأنَّهم أمامَهُ فهذا يُطابِقُ قولَ «كنتُ بصرَهُ الذي يُبصِرُ بِهِ» فقالَ سيدُنا عمرُ: «يا ساريةُ الجبلَ الجبلَ» فسَمِعَ قائدُ جيشِ المسلمِينَ سيدُنا ساريةُ بنُ زُنَيمٍ صوتَ عمرَ فانتبهَ لمكيدةِ المشركِينَ فانحازَ نحوَ الجبلِ وكتبَ اللهُ النصرَ للمؤمنينَ بفضلِ اللهِ تعالى.

فإسماعُ اللهِ تعالى صوتَ سيدِنا عمرَ لساريةَ وجيشِ المسلمينَ حتى أسمعَ الذينَ بتلك المسافةِ يومَ لم يكن تلفونٌ ولا برقياتٌ مُوافِقٌ لقولِهِ: «كنتُ سمعَهُ الذي يَسمَعُ بِهِ». فأداءُ الواجباتِ واجتنابُ المحرماتِ أفضلُ ما يُقَرِّبُ إلى اللهِ، أداءُ الواجباتِ واجتنابُ المحرماتِ تقربٌ إلى اللهِ أكثرُ مِنَ النوافلِ، النوافلُ تُقَرِّبُ إلى اللهِ لكن ليسَ كالفرائضِ. فإذا تَقَرَّبَ العبدُ بالنوافلِ بعدَ الفرائضِ اللهُ يُحِبّهُ يكونُ سمعَهُ الذي يَسمعُ بِهِ أي يحفظُ سَمعَهُ عمّا يُهْلِكُهُ ويحفظُ لهُ يدَهُ ورجلَهُ التي يمشي بها، يحفظُ لهُ فيستعملُها في الخيرِ.

اللَّهُمَّ أَصْلِحْ لَنَا دِينَنَا الَّذِي هُوَ عِصْمَةُ أَمْرِنَا
وَأَصْلِحْ لَنَا دُنْيَانَا التِي فِيهَا مَعَاشُنَا،
وَأَصْلِحْ لَنَا ءاخِرَتَنَا الَّتِي فِيهَا مَعَادُنَا،
وَاجْعَلِ الْحَيَاةَ زِيَادَةً لَنَا فِي كُلِّ خَيْرٍ
وَاجْعَلِ الْمَوْتَ رَاحَةً لَنَا مِنْ كُلِّ شَرٍّ

بكَتْ شوقًا منها إلى ولدٍ

رُوِيَ عن بعضِ أهلِ التفسيرِ أنَّ والدَ السيدةِ مريمَ «عِمْرانَ بنَ ماثَانَ» كان أحدَ أئمةِ المسلمينَ في بني إسرائيلَ، فتزوَّجَ من «حِنّةَ بنتِ فاقوذَ» فولدَتْ لَهُ إيشَاعَ التي تزوجَّها نبيُّ اللهِ «زكريا بنُ بَرْخِيَا» عليهِ السلامُ وقد كان ابنَ عَمِّ أمِّها حِنّةَ، ويعملُ نجارًا.

وكان سيدُنا زكريا قبلَ أن يُبْعَثَ نبيًّا كثيرَ العبادةِ، وقد خلا بيتُ المقدسِ من الأنبياءِ. فبينَما هو في محرابِ جدِّهِ داودَ عليهِ السلامُ وقد انصرفَ من صلاتهِ، هبطَ عليهِ سيدُنا جبريلُ عليهِ السلامُ بوحيِ اللهِ تعالى، وأَعلمَهُ أنَّ اللهَ بعثَهُ نبيًّا إلى بني إسرائيلَ، فخرجَ إلى قومهِ يدعوهُم، مُظْهِرًا المعجزاتِ البيّناتِ الدالّةَ على صدقِهِ في ما يدعو إليهِ مِنَ الحقِّ، فكذَّبَهُ بعضُهم وصدَّقَهُ ءاخرونَ. وأقامَ فيهم يأمرُهم بالمعروفِ وينهاهُم عن المنكرِ، مُتَّخِذًا مِنْ بيتِ المقدسِ مكانًا للتعبُّدِ والدعوةِ إلى اللهِ عَزَّ وجلَّ مع بقيةِ الأحبارِ المسلمينَ.

توالتِ السنواتُ، ولم يُرْزَقْ سيدُنا زكريا بولدٍ، لأنَّ زوجتَهُ كانت عاقرًا لا تلدُ.

وكانت حماتُهُ حِنَّةُ قد شاخَتْ، وبينَما هيَ جالسةٌ ذاتَ يومٍ في ظِلِّ شَجَرةٍ إلى جانبِ زوجِها عِمْرانَ، رأتْ طيرًا يُطْعِمُ فرخَهُ، فبكَتْ شوقًا منها إلى ولدٍ، وذكرَتْ ذلكَ لزوجِها فقالَ: «قومِي بِنا نُصَلِّيَ وندعوَ اللهَ في ذلكَ»، فقاما وصلّيا ودعَوَا اللهَ تعالى أن يرزقَهُما ولدًا، فرأى عِمْرانُ في منامهِ أنَّ اللهَ قد استجابَ دعاءَهُ ودعاءَ زوجتِهِ حِنَّةَ، وتحقَّقَ لهما ما أرادا فحمَلتْ منهُ، وألهمَها اللهُ تعالى فقالَتْ: «لَئِنْ نجَّانِيَ اللهُ ووضعَتُ ما في بطنِي لَأَجْعَلَنَّهُ مُحَرَّرًا» أي خالِصًا لخدمةِ المسجدِ مُتفرِّغًا لعبادةِ اللهِ.

فلمَّا نَذَرَتْ قالَ لها عِمْرانُ: ماذا صَنعتِ، أرأيتِ إن كانتْ أنثى؟ فاغتمَّا لذلكَ. وبعدَ عدةِ أشهرٍ ماتَ عِمْرانُ فبقِيَتْ زوجتُهُ تنتظرُ مولودَها وحيدَةً.

وكانَ المحرَّرُ يُجْعَلُ في المسجدِ يقومُ بخدمتِهِ مِنْ كَنْسٍ وإسراجٍ ونحوِهما حتى يبلغَ، ثم يخيَّرُ بينَ البقاءِ والذهابِ، فإنْ أبَى البقاءَ وأرادَ أن يذهبَ ذهبَ، وإن اختارَ البقاءَ فليسَ له بعدَ ذلك خِيَارٌ، ولم يكن نبيٌّ في بني إسرائيلَ إلا ومِنْ نسلِهِ محرَّرٌ في بيتِ المقدسِ، وهذا التحريرُ لم يكنْ إلا في الغِلمَانِ، أما الأنثى فكانت لا تصلُحُ لذلك لِما يصيبُها من الحيضِ والأذَى.

لَما وضعتْ حِنَّةُ مَنْ في بطنِها وهي تتوقَّعُهُ ذكرًا فوجِئتْ فقالتْ: «ربِّ إني وضعتُها أنثى»، وكانت ترجو أن تلدَ ذكرًا يصلُحُ لخدمةِ بيتِ المقدسِ، وخاطبتْ ربَّها بذلك على سبيلِ الاعتذارِ ثم خاطبتْ نفسَها وقالت: «واللهُ أعلمُ بما وَضَعَتْ، فلعلَّ في هذه الأنثى خيراً بإذنِ اللهِ»، فسلَّتِ الأمُّ بذلك نفسَها وخفَّفَتْ مِنْ حَسْرَتِها وخيبةِ رجائِها، وسمَّتْ وليدَتها «مريمَ» ومعناهُ بلغتِهِمُ العابدةُ، وقد أرادتْ بهذه التسميةِ التفاؤلَ لها بالخيرِ والتضرُّعَ إليهِ بأن يكونَ فعلُ ابنتِها مطابقًا لاسمِها.

ثم قالتْ تدعُو ربَّها: «وإني أُعيذُها بكَ وذُرِّيَّتَها مِنَ الشيطانِ الرجيمِ»، فدعتْ لابنتِها ولمن يأتي منها بأن يعيذَها اللهُ مِنَ الشيطانِ.

فتقبَّلَها ربُّها بقَبُولٍ حسنٍ ورَضِيَ بها في النذرِ مكانَ الذَّكرِ، والظاهرُ أن سيدَنا زكريا أخبرَها بهذا، ولم تُقبَلْ أنثى قبلَ مريمَ في ذلك، وأنبتَها نباتًا حسنًا فسوَّى خلقَها، وكانتْ أجملَ النساءِ بزمانِها وأكملَهُنَّ، تنبُتُ في اليومِ ما ينبُتُ المولودُ في عامٍ واحدٍ.

اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ العَافِيَةَ فِي الدُّنْيا وَالآخِرَة

رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ

أمامَ إصرارِ قومِ لوطٍ على كُفرِهم وطُغيانِهم وانغماسِهِم في المنكراتِ والفواحشِ وعن الإيمانِ بنبيِّ اللهِ لوطٍ عليهِ السلامُ، سألَ لوطٌ عليهِ الصلاةُ والسلامُ ربَّهُ النصرةَ عليهِم لَمَّا أَصروا على كُفرِهم وتمادَوْا في غيِّهم، قالَ تعالى حكايةً عن نبيِّهِ لوطٍ عليهِ السلامُ: ﴿ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ١٦٩ ﴾ الشعراء وقالَ: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ٣٠ ﴾ العنكبوت.

أرادَ اللهُ تباركَ وتعالى نَصْـرَ نَبِيِّهِ لُوطٍ وإهلاكَ أولئكَ الكفارِ الخبثاءِ فأرسلَ اللهُ عزَّ وجلَّ إلى قومِ لوطٍ ملائكةً كِرامًا لإهلاكِهِم وهم جبريلُ وميكائيلُ وإسرافيلُ ليَقْلِبُوا قُراهُم عالِيَها سافلَها ويُنْـزِلُوا العذابَ بهم وكانت لهم مدائنُ أربعٌ، وكان عددُهُم يزيدُ على أربعمائةِ ألفٍ.

وكانوا قد جاءوا بصورِ شُبَّانٍ جَمِيلِـي الصُّورَةِ اختبارًا مِنَ اللهِ تعالى لقومِ لوطٍ وإقامةً للحجةِ عليهِم، ولَما وصلُوا القريةَ عندَ الظهيرةِ جاءوا إلى نبيِّ اللهِ لوطٍ فدخلوا عليهِ في صورةِ شُبَّانٍ مُرْدٍ جَمِيلينَ تُشرِقُ وُجوهُهُم بنضارةِ الشبابِ والجمالِ ولم يُخبروهُ في البدايةِ بحقيقتِهم. فظنَّ نبيُّ اللهِ لوطٌ أنَّهم ضيوفٌ فرحَّبَ بهم وخَشِـيَ إن لم يُضِفْهِم أن يُضِيفَهُمْ غيرُهُ، ولكنَّهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ اغتمَّ مِنْ دخولِهم عليهِ وقتَ الظهيرةِ لأنَّهُ خافَ عليهم من أولئكَ الأشرارِ المجرمينَ، ولا سيما أنَّهم كانوا من حيثُ الصورةُ في منتهى الحسنِ والجمالِ، وخَشِـيَ أن يكونَ قد رءاهم واحدٌ مِنْ قومِهِ حينَ دخلوا عليه فيذهبَ ويخبِـرَ قومَهُ.

لذلكَ أشفقَ نبيُّ اللهِ لوطٌ عليهم وخافَ مِنْ قومِهِ أن يعتدوا عليهم، قالَ اللهُ تباركَ وتعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا وَقَالَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ ٧٧ ﴾ هود أي شديدٌ بلاؤُهُ حيثُ كان يُدْرِكُ خبثَ نفوسِ وفسادَ طويتِهم، وكان قومُهُ عليهِ السلامُ قد اشترطوا عليهِ أن لا يُضَيِّفَ أحدًا، ولكنَّهُ رأى أن استضافةَ مَنْ جاءَهُ أمرٌ لا مَحِيدَ عنهُ خوفًا عليهِم من شرِّ قومِهِ وفسادِهِم وشذوذِهم.

وما إن سَمِعَ قومُ لوطٍ الخبرَ حتى أَقْبَلُوا مُسْرِعِينَ يُهْرَعُونَ إلى بيتِ نبيِّ اللهِ لوطٍ عليهِ السلامُ يُرِيدُونَ الاعتداءَ على ضيوفِ لوطٍ عليهِ السلامُ، وأخذَ نبيُّ اللهِ لوطٌ يُجادلُ قومَهُ المفسدينَ بالحسنى ويُناقِشُهُمْ باللُّطْفِ واللِّينِ لعلَّ فيهم مَنْ يَرْتَدِعُ عَنْ غَيِّهِ وضلالِهِ، ودَعاهُم عليهِ السلامُ إلى سلوكِ الطريقةِ الشرعيةِ المباحةِ وهي أن يتزوجوا بناتِ القريةِ وأن يكتَفُوا بنسائِهم ولا يعْتَدُوا، ولكنَّ قومَهُ رفضُوا نَصِيحتَهُ، وصارحُوهُ بغرضِهِم السيئِ مِنْ غيرِ استحياءٍ ولا خَجَلٍ.

فلما رأتِ الملائكةُ ما يلقى نبيُّ اللهِ لوطٌ عليهِ السلامُ من كربٍ شديدٍ أخبروهُ بحقِيقَتِهِم وأنَّهُم ليسُوا بَشَرًا وإنما هُمْ ملائكةٌ ورسلُ اللهِ قَدِمُوا وجاءوا لإهلاكِ هذه القريةِ بأمرٍ مِنَ اللهِ لأنَّ أهلَها كانوا ظالمينَ بكفرِهم وفسادِهم، يقولُ اللهُ تباركَ وتعالى إخبارًا عما قالَت الملائكةُ لنبيِّهِ لوطٍ عليهِ السلامُ: ﴿ قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ ٨١ ﴾ هود.

كما أمروهُ أنْ لا يلتفتَ منهمْ أحدٌ عندَ سماعِ صوتِ العذابِ إذا حَلَّ ونَزَلَ، وأن يكونَ لوطٌ خَلْفَ أهلِه وبناتِهِ يقودُهُم لئلا يتخلفَ منهم أحدٌ وليجِدُّوا في السيرِ ويبعُدُوا عن المدينةِ قبلَ أنْ يُفاجِئَهُمُ الصُّبْحُ موعدُ نزولِ العذابِ.

فَجَمَعَ لوطٌ أهلَهُ وبناتَهُ ومواشِيَهُ. ولَما أشرقتِ الشمسُ وقبلَ أن يستيقظَ عمومُ أهلِ المدينةِ جاءَ سيدُنا جبريلُ عليهِ السلامُ الذي وصفَهُ اللهُ تباركَ وتعالى في القرءانِ بقولِهِ: ﴿ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾﴾ التكوير وأدْخَلَ ريشةً واحدةً مِنْ أجنحتِهِ في قُراهُم ومُدُنِهِم وكانت أربعةً أو خمسةً واقتلعَهُنَّ مِنْ أصلِهِنَّ وقَرارِهِنَّ بمن فيهن مِنْ قومِ لوطٍ الكافرينَ وكانوا كما قيلَ: أربعَمائةِ ألفِ شخصٍ، وما معَهُم مِنَ البهائمِ فرفعَ الجميعَ حتى بلغَ بهِنَّ عَنانَ السماءِ حتى سَمِعَ الملائكةُ الذينَ في السماءِ الأُولى أصواتَ دِيَكَتِهِم ونباحَ كلابِهِم.

ثم قلبَها عليهِم فجعَلَ عالِيَها سافلَها أي لم يَرُدَّها كما كانت وإنما ردَّها مَقْلُوبةً بمشيئةِ اللهِ وقدرتِهِ، مِنْ دونِ تعبٍ ولا مَشقةٍ، وأرسلَ عليهِم صيحةً مِنَ السماءِ وأمطرَ عليهِم حِجارةً مِنْ سِجيلٍ، يقولُ اللهُ تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾﴾ الحجر مُخَطَّطَةً بسوادٍ وبياضٍ كُلٌّ بحجمِ قبضةِ الرجلِ، وعليه اسمُ صاحبهِ الذي سَقَطَ عَلَيْهِ، وجَعَلَتِ الحجارةُ تَتْبَعُ مَنْ خَرَجُوا مِنْ هذهِ المدُنِ منْ أهلِها، ممن كانوا يفعلونَ فعلَهُمُ الخبيثَ مِنْ مسافرينَ ورُعَاةٍ فلم يُفْلِتْ منهم أحدٌ.

وما إن أشرقَتِ الشمسُ حتى كانتِ القرى بمن فيها خرابًا ودمارًا يقولُ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ هود.

اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَماتِ
وَ مِنْ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّال

عاقبةُ الظلمِ

اعلم أنَّ اللهَ تباركَ وتعالى هو القاهرُ فوقَ عبادهِ وللضعيفِ معينٌ، وللمظلومِ ناصرٌ. ذكرَ الهيتميُّ في كتابِ «الزواجرِ عن اقترافِ الكبائرِ» أنَّهُ كانَ رجلٌ من بني إسرائيلَ على ساحلِ البحرِ فرأى رجلًا مقطوعَ اليدِ من الكتفِ وهو يُنادي بأعلى صوتِهِ «ألا من رءاني فلا يَظلِمَنَّ أحدًا» قالَ: فدنا منهُ وقالَ: يا عبدَ اللهِ ما خبـرُك؟ فقالَ لهُ: اعلمْ، أني كنتُ رجلًا شرطيًا فجئتُ يومًا إلى هذا الساحلِ فرأيتُ صيادًا مسكينًا قد اصطادَ سمكةً كبيرةً فأعجبتني فسألتُهُ أن يُعطيَني إيَّاها فأبى فقالَ: لا أُعطِيكَها، أنا آخذُ بثمنِها قوتًا لعيالي.

فسألتُه أن يبيعَها لي فأبى، فضربتُ رأسَهُ بسَوطِي وأخذتُها منه قهرًا ومَضَيتُ بها، قالَ: فبينَما أنا ماشٍ بها حاملُها، وكانت ما تزالُ فيها حياةٌ، إذ عضَّتْ عليَّ إبهامي عضةً قويةً، حاولتُ أن أُخلِّصَ إبهامي منها فلم أقدِرْ، وآلمتني ألـمًا شديدًا، حتى لم أَنَم من شدةِ الوجعِ، وورمَتْ يدي فجئتُ إلى عيالي فعالجوا أن يُخلِّصُوا إبهامي منها فلم يَقْدِرُوا إلا بعدَ تعبٍ شديدٍ، فأصابَ إبهامي ورمٌ وانتفاخٌ، ثم انتفخَتْ فيه عيونٌ من ءاثارِ أنيابِ هذه السمكةِ.

فلما أصبحتُ أتيتُ الطبيبَ وشكوتُ إليهِ الألمَ، فلما نظرَ إلى إبهامي قالَ: «هذه الآكلةُ» - أي ما يُسمى الغَرغرينا - بلا شكٍّ اقطَعْها وإلا تلِفَتْ يدُك أي إن لم تُقطَعْ إبهامُك هَلَكْتَ، فقُطِعَتْ إبهامِي. ثم اشتدَ الألمُ على باقي يدي، فلم أُطِقِ الراحةَ ولا النومَ من شدةِ الألمِ والوجعِ، فذهبتُ إلى الطبيبِ، فقالَ لي اقطعَ كفَّكَ فقطعتُها.

وانتشرَ الألمُ إلى الساعدِ وءالمني شديدًا وجعلتُ أستغيثُ من شدةِ الألمِ، فقيلَ لي اقطَعْها من المرفقِ، فقطعتُها فانتشرَ الألمُ إلى العَضُدِ. فقيلَ لي: لا بدَّ أن يُقطَعَ الكتفُ، اقطَعْ يدَكَ من كتفِكَ وإلا سرى الألمُ إلى جسدِك كلِّهِ، فقطعتُها. وما زالَ الألمُ يترددُ عليَّ، فقالَ لي بعضُ الناسِ: ما سببُ ألَمِكَ؟ فذكرتُ له قصةَ السمكةِ، فقالَ لي: لو كنتَ رجعتَ من أولِ ما أصابَكَ الألمُ إلى صاحبِ السمكةِ فاستحللْتَ منهُ واسترضَيتَهُ، ما قطعتَ يدكَ ولا عضوًا من أعضائِك، فاذهبْ إليهِ الآنَ واطلبْ رضاهُ قبلَ أن يصِلَ الألمُ إلى بدنِكَ.

قالَ فلم أزَلْ في طلبِه في البلدِ حتى وجدتُهُ، فوقعتُ على قدميْهِ أقبلُها وأبكي فقلتُ: يا أخي سألتُكَ باللهِ إلا عفوتَ عني، فقالَ لي: ومن أنت؟ فقلتُ: أنا الذي أخذتُ منكَ السمكةَ غَصْبًا وذكرتُ لهُ ما جرى عليَّ، وأريتُه يدي كيف قُطِعَتْ فبكى حينَ رءاها ثم قالَ: يا أخي قد أحللتُكَ منها. فقالَ الظالمُ: باللهِ يا أخي ، سألتُكَ باللهِ هل كنتَ دعوتَ عليَّ عندما أخذتهُا منك؟ قالَ: نعم، قلتُ «اللهم هذا تَقَوَّى عليَّ بقوتِهِ على ضعفِي وأخذَ مني ما رزقتني ظلمًا فأَرِني فيه قدرتَكَ». روى البخاريُّ عن أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ كانت عندَهُ مَظْلَمَةٌ لأخيهِ مِنْ عرضِهِ أو مِن شيءٍ فليتحَلَّلْهُ منهُ اليومَ قبلَ أن لا يكونَ دينارٌ ولا درهمٌ».

أكثِـرْ منَ الطاعاتِ وعدمِ الركونِ إلى هذه الدنيا الفانيةِ، فالدنيا ساعةٌ فاجعَلْها طاعةً والنفسُ طمَّـاعةٌ فعَلِّمْها القناعةَ.. ابنَ ءادمَ

يا مَنْ بدنياهُ اشتغَلْ وغرَّهُ طولُ الأملْ
الموتُ يأتي بغتة والقبرُ صندوقُ العملْ

اللَّهُمَّ اقْسِمْ لَنا مِنْ خَشْيَتِكَ
مَا تَحُولُ بِهِ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مَعَاصِيكَ،
وَمِنْ طَاعَتِكَ مَا تُبَلِّغُنَا بِهِ جَنَّتَكَ،
وَمِنَ الْيَقِينِ مَا تُهَوِّنُ بِهِ عَلَيْنَا مَصائِبَ الدُّنْيَا

اللَّهُمَّ
اجعلها رَحمةً لا نِقمةً

كانَ لكلِ من أنبياءِ الله تعالى الذينَ أرسلَهُم بدينِ الاسلامِ دينِ الحقِ، معجزاتٌ عديدةٌ تأييدًا لهم وتصديقًا لنبوتهم. وكان سيدُنا عيسَى عليه السلامُ مِنَ الأنبياءِ الذين أوتُوا معجزاتٍ عظيمةً كثيرةً منها معجزةُ نزولِ المائدة. قالَ الله تعالى في سورةِ المائدة :
﴿ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾ المائدة وكان سيدُنا عيسَى قد أَمَرَ الحوارييِنَ وهُم خِيرةُ مَنْ ءامنوا به عليهِ السلامُ، بصيامِ ثلاثين يومًا، فلما أتمُّوها كانُوا معه في صحراءَ.

وكان سيدُنَا عيسى إذا خرج تَبِعَهُ ألوفُ الناسِ: بعضُهُم أصحابُهُ، وبعضهم يطلبونَ منه الدعاءَ لَهُم لمرضٍ بِهم أو علةٍ، اذ كانوا أصحابَ عاهاتٍ وإعاقاتٍ، والبعضُ الآخرُ يتبعونَهُ للاستهزاءِ والتشويشِ.

سألَ الحواريونَ سيدَنَا عيسَى عليه السلامُ إنزالَ مائدةٍ من السَّماءِ عليهم لتَطْمَئِنَّ قلوبُهم بأنَّ الله تبارك وتعالى قد تَقَبَّلَ صِيامَهُم، وتكونَ لَهُم عيدًا يُفطِرُونَ عليها يومَ فِطرِهِم، وطلبُوا أن تكونَ كافيةً لأولِهِم وءاخرهم ولغنيِّهم ولفقيرِهِم ولكنْ سيدُّنا عيسى وَعَظَهُم في ذلك وخافَ ألا يقومُوا بشكرِ اللهِ كما يَجِبُ عليها، وهم قد رَأَوْا الكثيرَ من المعجزاتِ، فلماذا يطلبُونَ المزيدَ؟

وكانَ الجوابُ أنَّهُم يُريدونَ الأكلَ منهَا للتبركِ. ولَمَّا ألَحوا عليهِ في ذلك قامَ إلى حيثُ كانَ يُصَلِّي ولَبِسَ ثيابًا من شَعَرٍ وأطرقَ رأسَهُ وبَكَى خوفًا من الله تعالى وأخذَ يتضرعُ ويدعُو بأنْ يُجابُوا إلى ما طلبوا، فاستجابُ اللهُ عزَّ وجلَّ دعاءَهُ، ونزلت المائدةُ من السماءِ بينَ غَمَامتَينِ، غمامةٌ فوقَهَا وأخرى تَحتَهَا، وحولَهَا الملائكةُ، وصارَتْ تدنُو شيئًا، وكلَّما اقتربَتْ منهم يسألُ عيسى المسيحُ ربَهُ تعالى أن يَجعلها رَحمةً لا نِقمةً وأن يَجعلها سلامًا وبركةً.

فلم تزلْ تدنُو حتَّى استقرَتْ بين يدي عيسى عليه السلام وهي مغطاةٌ بِـمِنديلٍ، فقام يكشفُ عنها وهو يقولُ:«بسمِ اللهِ خيرِ الرازقِينَ» وإذَا عليها من الطعامِ سبعُ أسماكٍ كبيرةٍ وسبعةُ أرغفةٍ وخلٌ وملحٌ ورمانٌ وعسلٌ وثِمارٌ وهم يَجدونَ لَهَا رائحةً طيبة جدًا لَم يكونُوا يَجِدُونَ مثلَهَا قبلَ ذلكَ .

فأكلُوا منها وحَصَلَتْ بركاتُ هذهِ المعجزةِ العظيمةِ إذ شُفِيَ كلُ مَنْ بِهِ عاهةٌ أو ءافةٌ أو مرضٌ مزمنٌ، وصارَ الفقراءُ أغنياءَ، فنَدِمَ الناسُ الذينَ لَم يأكلُوا منها لِمَا رَأَوْا من إصلاحِ حالِ أولئكَ الذينَ أكلُوا.

ولَمَّـا تزاحم الناسُ على المائدةِ جَعَلَ سيدُنَا عيسَـى دورًا لكلٍ منهُم، وكان يأكلُ ءاخرُهُم كما يأكلُ أولُهُم، حتَّى قِيلَ : إنهُ كانَ يأكلُ منهَا كُلَّ يومٍ سبعةُ ءالآفِ شخصٍ.

وتَحَدَّثَ الناسُ عن هذهِ المعجزةِ العظيمةِ، فآمنَ خَلْقٌ كثيرٌ، وازدادَ المؤمنونَ يقينًا وثباتًا في إيـمانِهِم .

اللَّهُمَّ اغفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وإسْرَافَنَـا في أَمْرِنَـا
وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَار

الحواريُّون

أَرسَلَ اللهُ تبارك وتعالى عيسى إلى بنِـي إسرائيلَ يدعوهُم لدينِ الإسلامِ وعَلَّمَهُ التوراةَ وأَنزلَ عليهِ كتابًا سَـماويًا وهو الإنجيلُ الذي فيه دعوةٌ إلى الإيمانِ باللهِ الواحدِ الأحدِ خالقِ كلِّ شيءٍ وإلى الإيمانِ بأنَّ عيسى عبدُ اللهِ ورسولُهُ، وفيه بيانُ أحكامِ شريعتِهِ، وفيه البشارةُ بنبِـيّ ءاخرِ الزمانِ وهو سيدُنَا محمدٌ صلى الله عليه وسلم، وفيه الأمرُ بالصلاةِ والصيامِ وغيرُ ذلكَ من أمورِ الدينِ، وكانَ أصلُ دعوتِهِ شيئينِ إفرادُ اللهِ بالعبادةِ والإيمانُ بهِ أنَّهُ نبيُّهُ.

ولقد حَذَّرَ عيسَـى المسيحُ عليهِ السلامُ قومَهُ بنـي إسرائيلَ من الكفرِ والإشراكِ وبيَّـنَ لَـهم أنهُ من يُشرِكْ باللهِ تعالى فقد حَرَّمَ اللهُ تعالى عليهِ الجنةَ ومأواهُ نارُ جهنَّمَ خالدًا فيها أبدًا. وتوالتِ المعجزاتُ، فمَرَّ يومًا بجماعةٍ يَصْطَادُونَ السَّمَكَ ورئيسُهُمْ يُدْعَى«شَـمْعُونَ»، فقالَ لهمْ سيدُنا«عيسى» : «ما تصنعونَ؟» قالوا: «نَصِيدُ السَّمكَ»، قال: «أفلا تـمشونَ حتى نصيدَ الناسَ؟» أي لنهديهم إلى الإسلامِ، قالوا: «ومَن أنتَ؟» فأجابَ: «أنَا عيسى ابنُ مريمَ عبدُ اللهِ ورسولُه»، فسألُوه دليلًا يدُلُّـهم على صِدْقِهِ في ما قالَ.

وكان «شـمعونُ» قد رَمَى بِشَبَكَتِهِ في الماءِ تلكَ الليلةَ فما اصطادَ شيئا، فأمرَهُ سيدنا «عيسى» عليه السلامُ بإلقاءِ شَبَكَتِهِ مرةً أُخرى ودعا اللهَ تعالى متضرعًا إليه، فما هي إلا لحظاتٌ يسيرةٌ حتى اجتمعَ في تلكَ الشَّبَكَةِ من السَّمَكِ ما كادتْ تتمزَّقُ من كَثرتِهِ، فاستعانوا بأهلِ سفينةٍ أُخْرَى وملَئُوا السفينتَيْـنِ منَ السَّمَكِ، فعندَ ذلك ءامنُوا بهِ وانطلقُوا معه، فصارُوا من جُـمْلَةِ «الحوارِيّينَ» الذين كانوا يصطادُونَ السمكَ، فلما ءامَنُوا بسيدنا عيسى عليهِ السلامُ صَارُوا يَصْطَادُونَ الناسَ ليَهْدُوهم إلى دينِ الإسلامِ، وسُـمُّوا «بالحواريينَ» لبَيَاضِ ثيابِـهم وقيلَ بل لأنَّهُمْ كانوا أنصارَ سيدنا عيسى عليهِ السلامُ وأعوانَهُ الـمخلصينَ في مـحبَّتِهِ وطاعَتِهِ وخِدْمَتِهِ.

اللَّهُمَّ عَلِّمْنَا مَا جَهِلْنَا وَذَكِّرْنَا مَا نَسِينَا وزِدْنَا عِلْمًا وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ حَالِ أَهْلِ النَّار

كُنْ في الدُنيَا
كأنكَّ غريبٌ أو عابرُ سبيلٍ

روي أنَّ عيسى ابنَ مريمَ عليهِ السلامُ صَحِبَهُ رَجُلٌ وقال: يا نبي الله أكونُ معك، فانطلقا فانتهيا إلى شط نهرٍ فجلسا يتغدّيَانِ ومعهما ثلاثةُ أرغفةٍ فأكلا رغيفينِ وبقيَ رغيفٌ فقامَ عيسى عليه السلامُ إلى النهَرِ فشرِب منه ثمَّ رجَعَ فلم يجدِ الرغيفَ فقال للرجل من أَخَذَ الرغيفَ؟ قالَ لا أدري، فانطلقَ ومعه الرجلُ فرأى ظَبيةً - غزالةً - ومعها ولدانِ لها فدعا واحدًا فأتاهُ فذبـحَهُ واشتوى منه فأكَلَ هو وذلك الرجلُ.

ثم خاطَبَ عيسى عليهِ السلامُ الظبيَ بعد أن ذبـحَهُ وأكلا منه وقال له قم بإذنِ الله عز وجل فقامَ، فقال للرجلِ أسألُكَ بالذي أراكَ هذه الآيَةَ من أخذَ الرغيفَ؟ قال لا أدري، فانطلقا حتى انتهيا إلى مَفازَةٍ - فلاة - فجَمَعَ عيسى صلى الله عليه وسلم تُرابًا وكثيبًا - أي رملا - ثم قالَ له كُنْ ذهبًا بإذنِ الله عزَّ وجلَّ، فصارَ ذهبًا، فقَسَّمَهُ ثلاثةَ أقسامٍ فقال ثُلُثٌ لي وثلثٌ لك وثلثٌ للذي أخذ الرغيف فقَالَ أنا الذي أَخذتُ الرغيفَ، فقال له سيدُنَا عيسَى عليه السلامُ كلُّهُ لك وفارقَهُ.

فانتهى لهذا الرجلِ الذي أخذَ الذهبَ رجلانِ أرادا أن يأخذَا منه الذهبَ ويقتلاهُ فقالَ لَهُمَـا هو بيننا أثلاثًا فقبِلا ذلك فقال يذهبُ واحدٌ إلى القريةِ حتى يشتريَ لنا طعامًا فذهب واحدٌ واشترى طعامًا وقال في نفسِهِ: «لأي شيءٍ أقاسـمُهما في هذا المالِ؟ أنا أجعلُ في هذا الطعامِ سُـمًّا فأقتلُهما وءاخذُ هذا المالَ جـميعه فجعل في الطعام سـمًّا وقالا هـما فيما بينَهُمَا لأيّ شيءٍ نـجعلُ له الثلثَ إذا رجع إلينا قتلنَاهُ واقتسَمْنا الـمال نصفين، فلما رجع إليهما قتلاهُ ثم أكلا الطعامَ المسمومَ فماتا، فبقي ذلك الـمالُ بقيَ الذهبُ في المفازةِ - الفلاةِ - وأولئكَ الثلاثةُ قتلَـى عندَهُ، فمرّ عليهم عيسى عليه الصلاةُ والسلامُ وهم على تلك الحالِ، فقال لأصحابِهِ: هذهِ الدُّنيا فاحذرُوهَا.

ففي صحيحِ الإمامِ المسلمِ بنِ الحجاجِ من حديثِ المستوردِ بنِ شدادٍ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال:«ما الدنيا في الآخرةِ إلا مثلُ ما يضعُ أحدُكم إصبعَهُ في اليَمّ فلينظرْ بـمَـا تَرجِعُ». الرسولُ ﷺ يُشبّهُ الدنيَا بالنسبةِ للآخرةِ كمَنْ يَغمِسُ إصبعَهُ في البحرِ فلينظرْ بـمَـا تَرجِعُ. فالدنيَا بالنسبةِ لنعيمِ الآخرةِ كما لو غَمَسَ أحدُنَا إصبعَهُ في البحرِ فماذا يكونُ هذا البللُ بالنسبةِ لعظمِ البحرِ؟! وكذلك عذابُ الدنيَا بالنسبةِ لعذابِ الآخرةِ؟! قالَ اللهُ تباركَ وتعالى: ﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾﴾ التوبة.

المتاعُ هو ما يَتَمَتَّعُ بهِ صاحبُهُ برهةً بهِ يَنقطِعُ ويفنَى فَمَا عيبت الدنيَا بأكثرَ من ذكرِ فنائِهَا وتقلبِ أحوالِـهَا وهو أولُ دليلٍ على انقضائِهَا، فالدنيَا لا تُغني عن الآخرةِ بشيءٍ الدنيَا لا تساوِي عندَ اللهِ جناحَ بعوضةٍ. فمن عَرَفَ الآخرةَ وعظمَتَهَا رَغِبَ فيها وعَمِلَ لِيَسْكُنَ دارًا لا يَـموتُ سكانُـها ولا يَـخرَبُ بنيانُـها ولا يتغيرُ حسنُهَا. هواؤُهَا النسيمُ وماؤُها السَنِيمُ يتقلبُ أهلُهَا في رحمةِ أرحمِ الراحمينَ هذا شأنُ الكَيّسِ الفَطِنِ الـمُتَدَبّـرِ لا يُهِمُهُ التعلقَ بِـهذهِ الدنيَا لأنُّهُ عَلِمَ أن التَعَلُّقَ فيهَا لا يفيدُ وقد بَـيَّـنَ لَنا ذلك النبيُّ في الحديثِ.

فالدنيَا دارُ مـمرٍ أما الآخرةُ فدارُ البقاءِ وحتى لا نُوَجِّـهَ قلوبَنَا للدنيَا، الرسولُ حَذَّرَنَا وأَعْلَمَنَا بِـحَالِـهَا فالعاقلُ لا يبيعُ النعيمَ الدائمَ بالنعيمِ الذي ينقطعُ ويزولُ. فعن ابنِ عمرَ رضي اللهُ عنهُمَا قال:أخذ رسولُ اللهِ بِمَنْكِبِي فقالَ: «كنْ في الدنيَا كأنَّكَ غريبٌ أو عابرُ سبيلٍ». وكانَ ابنُ عمرَ يقولُ: «إذا أمسيتَ فلا تَنْتَظِرِ الصباحَ وإذا أَصْبَحْتَ فلا تنتظر المساءَ وخُذْ من صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ ومن حياتِكَ لموتِكَ». رواهُ البخاريُّ.

اللَّهُمَّ اكْفِنَا بِحَلَالِكَ عَنْ حَرَامِكَ،
وَأَغْنِنَا بِفَضْلِكَ عَمَّنْ سِوَاكَ

اللَّهُمَّ لا تُمِتْهُ

حتى يَنظُرَ في وجوهِ المومساتِ

كانَ في أمّةِ عيسى الصالحونَ الصادقونَ الذين استقامُوا بطاعةِ اللهِ وحدَهُ ومنهم جريجٌ رضي الله عنهُ، فقد كانَ جريجٌ من المسلمينَ الذينَ هم على شريعةِ نبيّ اللهِ عيسَـى المسيحِ عليه السلامُ، من الذينَ كانُوا يصلُّونَ صلاةَ المسيحِ عيسى عليه السلامُ ويصومُونَ صيامَهُ عليه السلامُ.

كان جريجٌ تقيًا صالحًا وليًا حقيقيًا اتَّبَعَ المسيحَ عيسى عليه السلام اتباعًا كاملًا أدّى الواجباتِ واجتنبَ الـمحرماتِ. بعدَمَا تَعَلَّمَ ما هو الواجبُ في شريعةِ عيسَى عليهِ السلامُ وما هو الحرامُ في شريعةِ عيسى عليهِ السلامُ وتَـمَسَّكَ بالنوافلِ، زادَ على الفرائضِ، تَـجرَّدَ للعبادةِ، اعتَزَلَ الناسَ خارجَ المدينةِ في مكانٍ مرتفعٍ، بنَى صومعةً من طينٍ ليسَ بناءَ فخفخةٍ، لأنَّ هـمَّهُ الآخرةُ، التجردُ لعبادةِ اللهِ. وكانَ لهُ أمٌّ تأتيهِ من وقتٍ إلى وقتٍ إلى الصومعةِ التي هو اعتَزَلَ فيهَا لعبادةِ اللهِ. ثم الناسُ أهلُ البلدِ صارُوا يعتقدونَ فيهِ حتى مَلِكُ تلكَ البلادِ صارَ يعتقدُ فيهِ أنهُ من العبادِ الصالحينَ.

وجاءَ في قصتِهِ عليه السلام أن امرأةً زانيةً فاسقةً قالَتْ لبعضِ الفاسدينَ الفاسقينَ: أنا أَفتِنُ جريجًا هذا، فتزينَتْ وتَعَرَّضَتْ لهُ فلم يلتفِتْ إليهَا. صومعتُهُ في مكانٍ مرتفعٍ وهي وقفَتْ بحيثُ يراهَا في مقابلِ بابهِ، فلمّا رءاهَا لم يَهْتَمَّ بِـهَا فقطعَتْ الأملَ في فتنتِهِ، ثم صادفَتْ رجلا راعيًا فتعرضَتْ لهُ فزنَـى بها فحَمَلَتْ منهُ. ثُم لَمَّـا ظَهَرَ حَملُهَا قالَتْ هذا من جريجٍ.

ثم لَمَّـا تأكدوا أنها حاملٌ بأنْ وَضَعَتْ حَملَهَا قالت: هذا الولدُ من جريجٍ، وذهبُوا إلى جريجٍ وبأيديهِم الفؤوسُ ليهدمُوا له صومعتَهُ التي كان يعبدُ اللهُ تعالى فيها. قالوا هذا «الذي كُنّا نعتقدُ فيه أنهُ وليُ اللهِ يفجُرُ بهذهِ المرأة ويُـحبِلُهَا». أخذُوهُ وربطُوهُ بحبلٍ ووضعُوا في عنقِهِ حبلًا وجرُّوه وطافُوا بهِ بينَ الناسِ إهانةً له وهدمُوا صومعتَهُ بالفؤوسِ.

فقال لهُم: «أمهلونِي حتى أصليَ ركعتينِ»، فأمهلُوهُ حتى توضأَ وصلى ركعتَينِ فصلى ركعتين ثم قال للمولودِ الذي ولدتْهُ هذه المرأةُ البغيُّ: «يا غلامُ من أبوكَ»؟ فقال المولودُ: «أبي الراعي».

أنطقَ اللهُ تعالى الغلامَ ليُبَرّئَ عبدَهُ الوليَّ الصالِحَ جريجًا. فلما سَمِعُوا هذه التبرئةَ انكبُّوا عليهِ يقبّلونهُ ويَتَمَسَّحُونَ بهِ، وقالوا له: «نبنِي لكَ صومعتَكَ من ذهبٍ»، قال: «لا، أعيدُوها كما كانَتْ من طينٍ» فعادوا يَتَمَسَّحُونَ به ويقبّلونَهُ ليرضَى حيثُ رَأَوْا لهُ هذهِ الكرامةَ العظيمةَ وهي أنه أنطَقَ هذا الطفلَ المولودَ بإذنِ اللهِ لتبرئَتِهِ مما اتُّهِمَ بهِ. روى هذهِ القصةَ البخاريُّ ومسلمٌ في صحيحَيْهِمَا.

هو سببُ هذهِ البليةِ التي ابتُلِيَ بها، كانَتْ أمُّهُ جاءَتْ ذاتَ يومٍ وَقَفَتْ تحتُ نادتْهُ يا جريجُ فلم يَرُدَّ عليها، ثلاثَ مراتٍ نادتْهُ يا جريجُ فلم يَرُدَّ عليها في دعوتِها. فبينما الناسُ يجرونَهُ وقد وضعُوا في رقبتِهِ حبلًا ليأخذوهُ إلى مكانٍ مرَّ على مُومِسَاتٍ فضَحِكَ تَذَكَّرَ دعوةَ أمّهِ، قالت: «اللهُمَّ لا تُمِتْهُ حتى ينظرَ في وجوهِ المومساتِ».

اللَّهُمَّ اجْعَلْ فِي قَلْبِي نُورًا وَفِي لِسَانِي نُورًا
وَاجْعَلْ فِي سَمْعِي نُورًا وَاجْعَلْ فِي بَصَرِي نُورًا
وَاجْعَلْ مِنْ خَلْفِي نُورًا وَمِنْ أَمَامِي نُورًا
وَاجْعَلْ مِنْ فَوْقِي نُورًا وَمِنْ تَحْتِي نُورًا
اللَّهُمَّ أَعْطِنِي نُورًا

بركة الإخلاص

روى البخاريُّ ومسلمٌ عن أبي عبدِ الرحمنِ عبدِ اللهِ بنِ عمرَ بنِ الخطّابِ رضيَ اللهُ عنهما قالَ: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «انطلقَ ثلاثةُ نفرٍ - أي ثلاثةُ رجالٍ - ممن كانَ قبلَكم حتى ءاواهُمُ المبيتُ - يعني ليبيتُوا فيه - إلى غارٍ - والغارُ هو ما يكونُ في الجبلِ مما يدخلُهُ الناس يبيتونَ فيهِ أو يتظللونَ فيهِ عَنِ الشمسِ وما أشبهَ ذلكَ - فدخلوهُ، فانحدرَتْ صخرةٌ مِنَ الجبلِ فَسَدَّتْ عليهمُ الغارَ - ولم يستطيعوا أن يُزَحْزِحُوها لأنها صخرةٌ كبيرةٌ فرأَوْا أن يتوسلوا إلى اللهِ تعالى بصالحِ أعمالِهم - فقالوا: إنَّهُ لا يُنْجِيكم مِنْ هذهِ الصخرةِ إلا أن تدعُو اللهَ تعالى بصالحِ أعمالِكُم، - فذكرَ أحدُهُم بِرَّهُ التامَ بوالدَيْهِ، وذكرَ الثاني عِفَّتَهُ التامةَ، وذكرَ الثالثُ ورعَهُ ونُصْحَهُ - .

قالَ رجلٌ منهم: اللهُمَّ كانَ لي أبوانِ شيخانِ كبيرانِ وكنتُ لا أغْبِقُ قبلَهما أهلًا ولا مالًا - الأهلُ مثلُ الزوجةِ والأولادِ، وكانَ لهُ غنمٌ فكانَ يسرَحُ فيها ثم يرجعُ في ءاخرِ النهارِ ويحلِبُ الغنمَ ويُعطي أَبَوَيْهِ الشيخَينِ الكَبِيرَينِ ثم يُعطِي بقيةَ أهلِهِ ومالِهِ - يقولُ: فنأى بِي طلبُ الشجرِ يومًا - أي أبعدَ بي طلبُ الشجرِ الذي يرعاهُ - فلم أَرُحْ عليهما حتى ناما فحلبْتُ لهما غَبُوقَهما فوجدتُهما نائـمَينِ، - فرجعَ فوجدَ أَبويهِ قد ناما، فنظرَ هل يسقِي أهلَهُ ومالَهُ قبلَ أَبويهِ أو ينتظرُ حتى يستيقظَ الأبوانِ - فكرهتُ أنْ أُوقِظَهُما وأن أغبِقَ قبلَهما أهلا أو مالًا- معناهُ رجَّحَ الثانيَ - فلبِثْتُ والقدحُ على يدِي أنتظرُ استيقاظَهُما حتى برَقَ الفجرُ والصبيةُ يتضاغَونَ عندَ قدمَـيَّ فاستيقظا فشربا غبوقَهُما - يعني أنه بَقِيَ فأمسكَ الإناءَ بيدِهِ حتى طلعَ الفجرُ وهو ينتظرُ أبويهِ فلما استيقظا وشَرِبا اللبنَ أسقى أهلَهُ ومالَهُ -.

«اللهُمَّ إن كنتُ فعلتُ ذلكَ ابتغاءَ وجهِكَ ففرِّجْ عنا ما نحنُ فيه من هذهِ الصخرةِ فانفرَجَتْ شيئًا لا يستطيعُونَ الخروجَ منهُ» - والمعنى إن كنتُ مخلصًا في عملِي هذا، فعلتُهُ مِنْ أجلِكَ ففرِّجْ عنا ما نحنُ فيهُ .

وفي هذا دليلٌ على الإخلاصِ للهِ عزَّ وجلَّ في العملِ، وأنَّ الإخلاصَ عليهِ مدارٌ كبيرٌ في قبولِ العملِ فتقبَّلَ اللهُ منهُ هذهِ الوسيلةَ وانفرجَتِ الصخرةُ لكن انفراجًا لا يستطيعونَ الخروجَ منهُ .

«قالَ الآخرُ :اللهُمَّ إنَّهُ كانت لي ابنةُ عمٍّ كانت أحبَّ الناسِ إليّ» وفي روايةٍ - كنتُ أُحِبُّها كأَشدِّ ما يُحِبُّ الرجالُ النساءَ - الثاني توسَّلَ إلى اللهِ عَزَّ وجلَّ بالعفةِ التامةِ وذلكَ أنَّهُ كانَ لَهُ ابنةُ عَمٍّ وكانَ يُحِبُّها حُبًّا شديدًا - فأردتُها على نفسِها فامتنعَتْ منِّي- فأرادها عن نفسِها أي بالزنا ليزنيَ بها ولكنَّها لم تُوافِقْ وأَبَتْ - حتى أَلَمَّتْ بها سَنَةٌ مِنَ السنينَ - أي أصابَها فقرٌ وحاجةٌ - فجاءَتني فأَعْطَيتُها عشرينَ ومائةَ دينارٍ - فاضطُرَتْ إلى أن تجودَ بنفسِها في الزنا مِنْ أجلِ الضرورةِ وهذا لا يجوزُ ولكن هذا الذي حصلَ - على أن تُخليَ بيني وبينَ نفسِها - مِنْ أَجلِ أنْ تُـمَكِّنَهُ مِنْ نفسِها - ففعلَتْ، حتى إذا قدرْتُ عليها». وفي روايةٍ «فلما قعدتُ بينَ رجلَيْها - أي فلما جلسَ منها مجلسَ الرجلِ مِنَ امرأتِهِ على أنَّهُ يريدُ أن يفعلَ بها قالت هذه الكلمةَ .

قالَتْ: «اتَّقِ اللهَ ولا تَفُضَّ الخاتمَ إلا بحقِّهِ» - فخَوَّفَتْهُ باللهِ عَزَّ وجلَّ وأَشارَتْ إليهِ إلى أَنَّهُ إنْ أرادَ هذا بالحقِّ فلا مانعَ عندَها، لكن كونُهُ يَفُضَّ الخاتمَ بغيرِ حَقٍّ هي لا تُريدُهُ، ترى أنَّ هذا مِنَ المعاصي ولهذا قالَتْ لَهُ: اتَّقِ اللهَ، - فانصرفتُ عنها - قامَ عنها - وهي أحبُّ الناسِ إليَّ - يعني ما زالَتْ رغبتُه عنها ولا كَرِهَها بل حُبُّها باقٍ في قلبِهِ، لكنْ أدركَهُ خوفُ اللهِ عزَّ وجلَّ فقامَ عنها - وتركتُ الذهبَ الذي أعطيتُها - مائةً وعشرينَ دينارًا - اللهُمَّ إنْ كُنتُ فعلتُ ذلكَ ابتغاءَ وجهِكَ فافْرُجْ عنَّا ما نحنُ فيهِ، فانفرجَتِ الصخرةُ غيرَ أنَّهم لا يستطيعونَ الخروجَ منها. - وهذا مِنْ ءاياتِ اللهِ لأنَّ اللهَ على كلِ شيءٍ قديرٌ، لو شاءَ اللهُ تعالى لانفرجَتْ عنهم لأولِ مرةٍ. ولكنَّهُ سبحانَهُ وتعالى أرادَ أن يُبقِيَ هذه الصخرةَ حتى يتمَّ لكلِّ واحدٍ منهم ما أرادَ أن يتوسلَ بِهِ مِنْ صالحِ الأعمالِ .

«وقالَ الثالثُ اللهُمَّ استأجرتُ أجراءَ وأعطيتُهم أجرَهم غيرَ رجلٍ واحدٍ تركَ الذي لَهُ وذهبَ فثَمَّرْتُ أجرَهُ حتى كَـثُـرَتْ منهُ الأموالُ - وأما الثالثُ فإنَّهُ يذكرُ أنَّهُ استأجرَ أجراءَ على عملٍ مِنَ الأعمالِ فأعطاهم أجورَهُم إلا رجلا واحدًا تركَ أجرَهُ فلم يأخذْهُ، فقامَ هذا المستأجِرُ فثمَّرَ المالَ فصارَ يتكَسَّبُ بِهِ بالبيعِ والشراءِ وغيرِ ذلكَ حتى نـما وصارَ منهُ إبلٌ وبقرٌ وغنمٌ ورقيقٌ وأموالٌ عظيمةٌ -.

فجاءَني بعدَ حينٍ فقالَ: يا عبدَ اللهِ أَدِّ إليَّ أجرِي - فقالَ لَهُ: يا عبدَ اللهِ أعطني أجري-، فقلتُ: كلُّ ما ترى مِنْ أجرِكَ مِنَ الإبلِ والبقرِ والغنمِ والرقيقِ ، فقالَ: يا عبدَ اللهِ لا تستهزئْ بي، فقلتُ: لا أستهزئُ بكَ، - كأنَّهُ يقولُ الأجرةُ التي لي عندكَ قليلةٌ كيفَ لي كلُّ ما أرى من الإبلِ والبقرِ والغنمِ والرقيقِ لا تستهزئْ بي، فقلتُ: هو لكَ - فأخذَهُ كلَّهُ فاستاقَهُ فلم يتْـرُكْ منهُ شيئًا، اللهُمَّ إنْ كنتُ فعلتُ ذلكَ ابتغاءَ وجهِكَ فافرُجْ عنَّا ما نحنُ فيهِ فانفرجَتِ الصخرةُ - وانفتحَ البابُ - فخرجوا يمشونَ - لأنهم توسلوا إلى اللهِ بصالحِ أعمالِهم التي فعلوها إخلاصًا للهِ عزَّ وجلَ - » مُتفقٌ عليهِ.

ففي هذا الحديثِ من الفوائدِ والعِبَـرِ، فضيلةُ برِّ الوالدَينِ وأنَّهُ مِنَ الأَعمالِ الصالحةِ التي يُفرِّجُ بها الكرباتِ ويُزيلُ بها الظلماتِ، وفيه فضيلةُ العفةِ عَنِ الزنا وأنَّ الإنسانَ إذا عَفَّ عَنِ الزنا مَعَ قُدرتِهِ عليهِ فإنَّ ذلكَ مِنْ أفضلِ الأَعمالِ، وقد ثبتَ عَنِ النبيِّ ﷺ أنَّ هذا مِنَ السبعةِ الذينَ يُظِلُّهُمُ اللهُ في ظلِّهِ يومَ لا ظِلَّ إلا ظلُّهُ رجلٌ دعتْهُ امرأةٌ ذاتُ منصِبٍ وجمالٍ فقالَ إني أخافُ اللهَ. فهذا الرجلُ مَكَّنَتْهُ هذه المرأةُ التي يُحِبُّها مِنْ نفسِها فقامَ خوفًا مِنَ اللهِ عَزَّ وجلَّ.

كما أن في هذا الحديثِ دليلٌ على فضلِ الأمانةِ وإصلاحِ العملِ للغيرِ فإنَّ هذا الرجلَ بإمكانِهِ لَمَّا جاءَهُ الأجيرُ أنْ يُعطيَهُ أجرَهُ ويُبقيَ هذا المالَ لَهُ، ولكنْ لأمانتِهِ وثقتِهِ وإخلاصِهِ لأخيهِ ونصحِهِ لَهُ أعطاهُ كلَّ ما أثمرَ أجرُهُ.

كذلك من فوائدِ هذا الحديثِ بيانُ قدرةِ اللهِ عزَّ وجلَّ حيثُ إنَّهُ تعالى أزالَ عنهمُ الصخرةَ بإذنِهِ فلم تأتِ سيارةٌ تُزيلُها ولم يأتِ رجالٌ يُزَحْزِحُونَها وإنما هو أمرُ اللهِ عزَّ وجلَّ. أمرَ اللهُ هذه الصخرةَ أن تنحَدِرَ فتنطَبِقَ عليهِم ثم أمرَها أن تنفرِجَ عنهم واللهُ سبحانَهُ على كلِّ شيءٍ قديرٌ.

وفيهِ مِنَ العِبَـرِ أنَّ اللهَ سميعُ الدعاءِ فإنَّهُ سَمِعَ دعاءَ هؤلاءِ واستجابَ لهم. وفيهِ مِنَ العِبَـرِ أنَّ الإخلاصَ مِنْ أَسبابِ تفريجِ الكرباتِ لأنَّ كلَّ واحدٍ منهم يقولُ: اللهُمَّ إنْ كنتُ فعلتُ ذلكَ من أجلِكَ فافْرُجْ عنَّا ما نحنُ فيهِ. نسألُ اللهَ أنْ يرزُقَنا وإيَّاكُمُ الإخلاصَ لَهُ.

اللَّهُمَّ اجْعَلِ القُرْءَانَ رَبِيعَ قُلُوبِنَا

وَنُورًا لأبْصَارِنَا وَجَوَارِحِنَا

وارْزُقْنا تِلاوَتَهُ ءاناءَ اللَّيْلِ وأطْرافَ النَّهارِ

نزولُ المطرِ

بدعاءِ النبيِّ ﷺ

انقطعَ المطرُ لوقتٍ طويلٍ، فجفَّتِ الأرضُ ولم تَعُدْ تستطيعُ الكثيرُ من القبائلِ أن ترعى أغنامَها لقلةِ المرعى وفقدانِ الماءِ، وهذا الأمرُ كانَ أليمًا كثيرًا عليهم فبعثوا بواحدٍ منهم إلى رسولِ اللهِ ﷺ في المدينةِ المنورةِ ليدعُوَ لهم بتفريجِ الكربِ.

وصلَ الأعرابيُّ وكان النبيُّ ﷺ قد صَعِدَ المنبرَ ليخطُبَ خُطبةَ الجمعةَ وقبلَ أن يبتدئَ خاطبَهُ الأعرابيُّ فقالَ: «يا رسولَ اللهِ، هَلَكَ الحالُ وجاعَ العِيالُ، فادْعُ اللهَ لنا»، فرفعَ نبيُّنَا المصطفى ﷺ يدَيهِ ولم يكن في السماءِ قِطعةٌ من السحابِ، ثم دعا ربَّهُ عزَّ وجلَّ أن ينـزِلَ الماءُ.

ما كادَ رسولُ اللهِ عليهِ السلامُ يضَعُ يدَيهِ حتى تكاثَفَتِ السُّحُبُ في السماءِ كأمثالِ الجبالِ منذرةً بهطولِ المطرِ بإذنِ اللهِ، ولم ينـزلِ النبيُّ عن مِنْبَـرِهِ حتى كانَ المطرُ فيهم وقد تَبَلَّلَتْ لحيتُهُ الشريفةُ لأنَّ مسجدَهُ كانَ مُغَطًّى بأغصانِ النخيلِ.

بقيتِ الأمطارُ تهطُلُ بغزارةٍ طيلةَ ذلكَ اليومِ والأيامِ التي تليهِ فخرجَ الأطفالُ وتراكضوا فرحِينَ تحت المطرِ، وانتعشَتِ الأرضُ وشربَتِ النياقُ والخيلُ وملأَ الناسُ أوعيتَهم، فقد حصلَ الخيرُ باذنِ اللهِ.

مضى أسبوعٌ وحلَّ يومُ الجمعةِ الآخرِ فأتى ذلك الأعرابيُّ نفسُهُ إلى رسولِ اللهِ ﷺ وقد صَعِدَ ليخطُبَ بالناسِ فقالَ: «يا رسولَ اللهِ، اشتدَتِ الأمطارُ وتهدَّمَتِ البيوتُ فادعُ اللهَ أن يَحْبِسَ المطرَ» وكانتِ السيولُ الجارفةُ أخذتْ بطريقِها منازلَهم فبعثُوا بالأعرابيِّ إلى النبيِّ عليهِ السلامُ ليدعوَ لهم.

تَبَسَّمَ رسولُ اللهِ ﷺ ودعا ربَّهُ تعالى قائلا: «اللهُمَّ حوالَينا ولا عَلينا» أي اللهُمَّ أنزِلِ المطرَ حوالَينا ولا تُنْـزِلْه علينا فيُهدِّمَ بيوتَنا، فانشقت السماءُ وانفرَجَتِ السُّحُبُ الكثيفةُ من فوقِ المدينةِ المنورةِ كأنَّها إكليلُ. كلُّ ذلك ببركةِ دعاءِ رسولِ اللهِ ﷺ الذي كانَ مُستجابَ الدعاءِ فهو نبيٌّ كريمٌ ورسولٌ عظيمٌ.

اللَّهُمَّ إنَّا نَعُوذُ بِكَ

مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئاتِ أَعْمَالِنَا

بارَك اللهُ لكما في لَيْلَتِكُما

في صحيح مسلمٍ: مَاتَ ابْنٌ لأبي طَلْحَةَ مِنْ أُمِّ سُلَيْم فَقَالَتْ لأَهْلِهَا أي لقرابتها الذين عندها وشعروا بوفاة ابنها لا تُحَدِّثُوا أَبَا طَلْحَةَ عند مجيئه المنـزل بـوفاة ابْنِهِ لئلا يتنغص عيشه وهو صائم فلا ينال حاجته من الطعام حَتّى أَكُونَ أَنَا أُحَدِّثُهُ، فَجَاءَ فَقَرَّبَتْ إِلَيْهِ عَشَاءً فَأَكَلَ وَشَرِبَ، ثُمَّ تَصَنَّعَتْ لَهُ بتحسين الهيئة بالحلي ونحوه أَحْسَنَ مَا كَانَتْ تَصَنَّعُ قَبْلَ ذلِكَ الوقت، وهذا يدل على كمال يقينها وقوة صبرها.

فَوَقَعَ بِهَا أي جامعها، فَلَمَّا رَأَتْ أَنَّهُ قَدْ شَبِعَ وَأَصَابَ مِنْهَا بالجماع قَالَتْ منبهة له على أنه لا ينبغي له الحزن على موت ولده، عند اطلاعه عليه لأنه وديعة بصدد الاسترداد: يَا أَبَا طَلْحَةَ أَرَأَيْتَ أي أخبرني لَوْ ثبت أَنَّ قَومًا أَعَارُوا عَارِيَتَهُمْ أَهْلَ بَيْتٍ فَطَلَبُوا عَارِيَتَهُم أَلَهُمْ أي لأهل البيت المستعيرين أَن يَمْنَعُوهُمْ؟ قَالَ: لا أي ليس لهم منعهم ، فَقَالَتْ: فَاحْتَسِبِ ابْنَكَ أي اطلب ثواب ابنك وأجر مصيبتك فيه من الله ولا تدنسها بما يحبط الثواب فإنه كان عندك عارية استرده مالكه قال أنس: فَغَضِبَ أبو طلحة ثُمَّ قَالَ لأم سليم: تَرَكْتِنِي حَتّى إِذَا تَلَطَّخْتُ أي بالجماع ثُمَّ أَخْبَرْتِنِي بابْني أي بموته.

فَانْطَلَقَ يمشي حَتّى أَتَى رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم فَأَخْبَرَهُ بِمَا كَانَ أي المذكور من فعل أم سليم الدال على كمال يقينها وحسن صبرها مما يعجز عنه كثير من الرجال. فقالَ رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم داعيًا لهما بما يعود نفعه عليهما: «بارَكَ اللّهُ لكما في لَيْلَتِكُما» أي فيما فعلتماه فيها من الإعراس بأن يجعله نتاجًا طيبًا وثمرة حسنة. قَالَ أنس: فَحَمَلَتْ أم سليم إجابة لدعائه بالبركة. وَذَكَرَ تَمَامَ الْحَدِيثِ.

فها هي أُمُّ سُلَيمٍ المنورةُ القلب بهديِ المصطفى تتحلى بالصبرِ الجميل عند فقد ولدِها مِن أبي طلحةَ، فهل بلغت أم سُلَيْم هذه الدرجةَ مِن الصبر لولا قوة اليقين واليوم الآخر والثواب من الله تعالى وثبات القلب بتعاليم سيد العالمين؟ فلا عَجَبَ أنْ تَجد بين الصحابَة من كانَ هكذا حاله فإنَّ نبيَهم سيدُ الناس وخيرُ الخلق وأشدُ الناسِ توكلا على

الله وقد غرس فيهم هذا التسليمَ والتعظيمَ لكلام رَبِّ العالمين. ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴿٣٦﴾﴾ الأحزاب.
وهكذا سائر الأعمال الصالحة التي يعملها العبد المسلم يتفاوت الأجر في ذلك على حسب قوة اليقين وصدق النية وحسنها وهذا كله لا يثبت لأحد إلا بالثبات على الإسلام أي تجنب الكفريات القولية والفعلية والاعتقادية.

فمن ثبت على الإسلام وأخلص نيته لله تعالى ووافق في عمله شرع الله الذي جاء به نبيه صلى الله عليه وسلم له هذا الأجر. والله تبارك وتعالى غني شكور لا يعجزه شيء وهو أكرم من أعطى. فأهم الأمور هو موافقة شرع الله تبارك وتعالى والثبات على ذلك أي حفظ الجوارح وحفظ اللسان وحفظ البدن وحفظ القلب. فمن لم يحفظ جوارحه أي لسانه وبدنه وقلبه مما يحبط العمل فإنه كالذي يبني ثم يهدم، يبني ثم يهدم، يبني ثم يهدم.

بعض الناس إذا خاصم شخصًا فغضب يقع في كفرية يسب خالقه أو يسب نبيًّا من أنبيائه أو يغير اعتقاده عن الاعتقاد الإسلامي الإيماني إلى ما يخالفه يكون خرج بذلك من الإسلام ويلزمه النطق بالشهادتين (لا إِلهَ إلا الله محمد رسولُ الله) فورا للعود إلى الإسلام.

اللَّهُمَّ عَلِّمْنَا مَا جَهِلْنَا وَذَكِّرْنَا مَا نَسِينَا
وَعَلِّمْنَا مَا يَنْفَعُنَا وزِدْنَا عِلْمًا
وَنَعُوذُ بِكَ مِنِ حَالِ أَهْلِ النَّار

اللَّهُمَّ اسْتُرْهُمْ مِنَ النَّارِ كَسِتْرِي إِيَّاهُمْ بِمُلاءَتِي هَذِهِ

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ لهُ النعمةُ ولهُ الثناءُ الحسنُ، اللهمَّ صلِّ وسلِّمْ على سيدِنا محمدٍ وعلى ءالِهِ وشرِّفْ وكرِّمْ. أما بعدُ فإذا أرادَ اللهُ تعالى إظهارَ معجزةٍ لنبيِّهِ ﷺ يُنطِقُ الشجرَ والحجرَ، هذهِ حالاتٌ خاصةٌ يُنطِقُ اللهُ تعالى الجمادَ فيها. يَخلقُ في الجمادِ الإدراكَ لكن من دونِ روحٍ، ليسَ الروحُ شرطًا عقليًّا ولا شرعيًّا للإحساسِ والإدراكِ والنطقِ.

ففي عملِ اليومِ والليلةِ لابنِ السنيِّ عن أبي أُسيدٍ البدريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِلْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بعدما جاءَ الرسولُ ذاتَ يومٍ إليهِ: «لا تَرِمْ مِنْ مَنْزِلِكَ أَنْتَ وَبَنُوكَ حَتَّى آتِيَكُمْ» معناهُ أنتَ وأبناؤكَ لا تُفارقوا المنزلَ حتى أعودَ إليكم.

وروى ابنُ عساكرَ في تاريخِ دمشقَ أنَّهُ قالَ للعباسِ بنِ عبدِ المطلبِ عمِّ الرسولِ ﷺ: «يا أبا الفضلِ لا ترم منزلَكَ غدًا أنتَ وبنوكَ فإنَّ لي فيكم حاجةً» فانتظروهُ فَأَتَاهُمْ بَعْدَمَا أَضْحَى، فَقَالَ: «السَّلامُ عَلَيْكُمْ، كَيْفَ أَصْبَحْتُمْ» ؟ قالوا: وعليكم السلامُ ورحمةُ اللهِ وبركاتُهُ يا رسولَ اللهِ بِخَيْرٍ ، بِأَبِينَا وَأُمِّنَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ أَصْبَحْتَ ؟ قَالَ: «بِخَيْرٍ، أَحْمَدُ اللهَ».

قَالَ: «ادْنُوا» أي تقاربوا، ليقترِبْ بعضُكُم من بعضٍ. فَتَدَانَوْا يَزْحَفُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ، فَاشْتَمَلَ عَلَيْهِمْ بِمُلاءَتِهِ، أي وضعَ عليهم مُلاءةً وهي ثوبٌ من قطعةٍ واحدةٍ عريضةٍ، مدَّهُ عليهم وَقَالَ: «هَذَا عَمِّي وَصِنْوُ أَبِي - شقيقُ أبي - ، وَهَؤُلاءِ أَهْلُ بَيْتِي، اللَّهُمَّ اسْتُرْهُمْ مِنَ النَّارِ كَسِتْرِي إِيَّاهُمْ بِمُلاءَتِي هَذِهِ». فأَمَّنَتْ أُسْكُفَّةُ البابِ والجدرانِ والأُسكفةُ هي العتبةُ. قَالَتْ أُسْكُفَّةُ الْبَابِ: ءامينَ ثلاثًا، ءامينَ ءامينَ ءامينَ. وَقَالَ جُدْرَانُ الْبَيْتِ: ءامينَ.

اللهُ تعالى بقدرتِهِ خلقَ صوتًا في الأُسكفةِ والجدرانِ، جدرانُ البيتِ الذي كانوا فيهِ.
العباسُ رضيَ اللهُ عنهُ كان أفضلَ أعمامِ الرسولِ بعدَ حمزةَ فيما نعتقدُ، كانَ له أولادٌ عشرةُ ذكورٍ أولهُم الفضلُ وءاخرُهم تمامٌ لما رزقَهُ اللهُ العشرةَ قالَ: تموا بتمامٍ فصاروا عشرةْ ... يا ربِّ فاجعلْهُم كرامًا بررةْ.

اللهُ تعالى استجابَ دعاءَهُ فكانوا كلُّهم مِن خيارِ الناسِ، يكفي أنَّ منهم عبدَ اللهِ بنَ عباسٍ ترجمانَ القرءانِ رضيَ اللهُ عنهُ.

رَبَّنَا ءاتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً

وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ.

اللَّهُمَّ قِنَا شَرَّ ما نَتَخَوَّفُ

رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ

وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءامَنُوا

وَالحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِين وَصَلّى اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَءالِهِ

اللَّهُمَّ أكثِرْ
مالَهُ وولدَهُ وأطِلْ حياتَهُ

روى البخاريُّ بالإسنادِ المتصلِ عن أنسٍ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ دخلَ رسولُ اللهِ ﷺ على أمِّ سُليمٍ، فأتتْهُ أمُّ سليمٍ بسمنٍ وتمرٍ فقالَ ﷺ: «أعيدوا سمنَكُم في سقائهِ وتمرَكُم في وعائهِ فإني صائمٌ». فقامَ إلى ناحيةٍ من البيتِ فصلى غيرَ المكتوبةِ ودعا لأمِّ سُليمٍ وأهلِ بيتِها ثم قالتْ أمُّ سُليمٍ: يا رسولَ اللهِ إنَّ لي خويصةً قال: «ما هِي؟» قالت: «خادمُك أنسٌ».

أمُّ سُليمٍ هذه امرأةٌ من الأنصارِ لَمّا جاءَ رسولُ اللهِ ﷺ إلى المدينةِ أعطتْهُ ابنَها أنسًا ليخدمَهُ إكرامًا لرسولِ اللهِ ﷺ فخدمَهُ أنسٌ عشرَ سنينَ بصدقٍ وجِدٍّ ونشاطٍ خدمَ الرسولَ ﷺ حتى تُوفيَ رسولُ اللهِ ﷺ فكانَ بعدَ ذلكَ لا تمضِي عليهِ ليلةٌ إلا ويرى الرسولَ عليه الصلاةُ والسلامُ أي في المنامِ.

أمُّ سليمٍ قالت: «خادمُكَ أنسٌ» معناهُ ادْعُ لخادمِكَ أنسٍ. قالَ أنسٌ: «فدعا لي ما تركَ خيرَ ءاخرةٍ ولا دنيا إلا دعا لي بِهِ» اللهُ رزقَهُ من المالِ حتى صارَ أغنى قبيلتِهِ حتى صارَ أكثرَ الأنصارِ مالًا، وكانَ من أغنى الناسِ بينَ أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ ورزقَهُ اللهُ عمرًا طويلًا عاشَ من العُمُرِ نحوَ تسعينَ سنةً، ورزقَهُ اللهُ تعالى أولادًا كثيرينَ.

وُلِدَ لهُ أكثرُ من مائةِ ولدٍ كثيرٌ منهم ماتوا في الصغرِ في حياتهِ وكثيرٌ منهم عاشوا، الذين عاشوا قريبُ مائةٍ والذين ماتوا مائةٌ وزيادةٌ. كلُّ هذا ببركةِ دعاءِ الرسولِ ﷺ، اللهُ استجابَ دعوةَ الرسولِ قالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ: «اللَّهُمَّ أكثِرْ مالَهُ وولدَهُ وأطِلْ حياتَهُ» رواهُ البخاريُّ في الصحيحِ.

بعدَ وفاةِ رسولِ اللهِ عليهِ الصلاةُ والسلامُ تركَ المدينةَ وذهبَ إلى البصرةِ إلى العراقِ كان سكنَ العراقَ. وكانَ له بستانُ نخلٍ يحملُ في السنةِ مرتينَ وكان يُشَمُّ رائحةُ المسكِ في بُستانِهِ كلُّ هذا ببركةِ الرسولِ ﷺ ، قال«اللهُمَّ أكثِرْ مالَهُ وولدَهُ وأطِلْ حياتَهُ» فاستجابَ اللهُ دعوتَهُ، فكانَ مِنْ ءاخرِ أصحابِ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مَوْتًا.

ثم هنا فائدةٌ مهمّةٌ وهي الدعاءُ بطولِ العمرِ الدعاءُ بطولِ الحياةِ جائزٌ إذا أُريدَ بهِ أنَّ هذا الإنسانَ نطلبُ لهُ أن يطوِّلَ اللهُ عمرَهُ أي إن كانَ شاءَ اللهُ لهُ في الأزلِ طولَ العُمرِ أن يُبَلِّغَهُ ذلك العُمرَ، أما إن كانَ القصدُ لو انتهى الأجلُ الذي عِلمَهُ اللهُ وقدَّرَهُ أنك تعيشُ إليهِ نطلبُ لكَ منهُ أن يزيدَك فوقَ ذلكَ فهذا ضلالٌ.

اللَّهُمَّ لا سَهْلَ إلا مَا جَعَلْتَهُ سَهْلا،

وَأَنْتَ إِنْ شِئْتَ جَعَلْتَ الْحَزْنَ سَهْلا

اللَّهُمَّ إِنَّا دَعَوْناكَ فاستجِبْ لَنَا دُعاءَنَا،

وَءاخِرُ دَعْوَانَا أَنِ الحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ العَالَمِينَ

اللَّهُمَّ إنْ كُنتَ أَعطَيتَ أَحدًا مِنْ خَلْقِكَ الصلاةَ في قَبرِهِ فَأَعْطِنِيها

قَالَ ابنُ رَجَبٍ في كتابِهِ أَهوالِ القبورِ: «روى أبو نُعَيمٍ بإِسنادِهِ عَنْ محمدِ بنِ عبدِ اللهِ الأَنصاريِّ قالَ حدثني إبراهيمُ بنُ الصِّمَّةِ المُهَلَّبيُّ قالَ: حدَّثَني الذينَ كانوا يمرونَ بالجِصِّ بالأَسحارِ قالوا: «كُنَّا إذا مَرَرنا بجَنَبَاتِ قبرِ ثابتٍ البنانيِّ رضيَ اللهُ عنهُ سَمِعْنَا قراءةَ القرءانِ».

وبإسنادهِ عن سَيَّارِ بنِ حَسَنٍ عن أَبيهِ قالَ: «أنا والذي لا إلهَ إلا هُوَ أَدخَلتُ ثابتًا البنانيَّ لحدَهُ ومعي حُمَيدٌ ورجلٌ غيرُهُ فلـمَّـا سَوَّينا عليهِ اللَّبِـنَ سَقَطَتْ لَبِنَةٌ - حَجَرٌ- فنـَزَلْتُ فأَخَذتُها مِنْ قَبرِهِ فإذا بِهِ يُصلي في قَبرِهِ - أي وجدَهُ قائمًا يُصَلِّـي في قبرِهِ -».

قالَ: فقلتُ للذِي معي: ألا تراهُ؟ قالَ: اسكُتْ، فلمَّا سَوَّيْنَا عَلَيْهِ الترابَ وفرَغنا أَتَيْنَا ابنتَهُ فقلنا لها: ما كانَ عملُ ثابتٍ؟ - أي ماذا كانَ يفعلُ في هذه الدنيا ؟ -

قالت: وما رأيتُم، فأخبرنَاها، فقالت: كانَ يقومُ الليلَ خمسينَ سنةً فإذا كانَ السَّحَرُ قالَ في دعائِهِ: «اللهُمَّ إن كنتَ أعطيتَ أحدًا مِنْ خَلْقِكَ الصلاةَ في قبرِهِ فأعطِنِيها، فما كانَ اللهُ ليردَّ ذلكَ الدعاءَ» اهـ

ثَابِتٌ البُنَانِيُّ هذا ما رأى الرسولَ ﷺ لكنْ رأى أصحابَ رسولِ اللهِ كانَ لازَمَ أنسَ بنَ مالكٍ خادمَ رسولِ اللهِ، الذي خدمَ الرسولَ عشرَ سنواتٍ بالمدينةِ، رءاهُ وأخذَ منهُ العلمَ وكانَ يُحِبُّهُ ويتعلَّقُ بِهِ، لازَمَهُ ملازَمةً شَديدةً، كانَ عابدًا تقيًّا عالمًا، مِنْ عُلماءِ الحديثِ كانَ يُقالُ لَهُ ثابتٌ البُنَانِيُّ. كانَ سألَ اللهَ تعالى أنْ يُمَكِّنَهُ مِنَ الصلاةِ في القبرِ، فاللهُ تعالى حقَّقَ لَهُ دعوتَهُ فشاهدَهُ الناسُ عِيانًا يقظةً ليسَ منامًا وهو يُصلي في قبرِهِ، كما وردَ عَنِ الذي أَلْحَدَهُ في قَبرِهِ، أَدْخَلَهُ في قَبرِهِ. هذا الرجلُ الصالحُ ثَبَتَ على صلاةِ النَّافلةِ، صلاةِ

التطوعِ خَمسينَ سنةً ويدعُو اللهَ تعالى أن يرزقَهُ الصلاةَ في قبرِهِ فأكرمَهُ اللهُ بذلكَ. أَرأيتُم ماذا كانَ يدعُو طيلةَ خَمسينَ سنةً، هل دعا بالمالِ؟ هل دعا بالرزقِ؟ هل دعا بالولدِ؟ بل دعا بالصلاةِ، وأينَ؟ في القبرِ إلى يومِ القيامةِ.

أينَ الذينَ يتهاونُونَ فيها؟ أينَ الذينَ يُضَيِّعُونَها في الدنيا في الرخاءِ في الصحةِ في العافيةِ. رسولُ اللهِ ﷺ في ليلةِ الإسراءِ والمعراجِ رأى قومًا تَرضخُ رؤوسُهم أي تُكسرُ رؤوسُهم ثم تعودُ كما كانت.

فقالَ جبريلُ عليهِ السلامُ: هؤلاءِ الذينَ تتثاقلُ رؤوسُهم عن تأديةِ الصلاةِ.

وقَدْ سُمِعَ ثابتٌ البُنانيُّ يقولُ: «الليلُ والنَّهارُ أَرْبَعٌ وعشرونَ ساعةً لَيْسَ فِيها سَاعَةٌ تَأْتِي عَلَى ذِي رُوحٍ إِلَّا وَمَلَكُ المَوْتِ عَلَيْها قَائِمٌ فَإِنْ أُمِرَ بِقَبْضِهَا قَبَضَها وإِلَّا ذَهَبَ».

اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ حُبَّكَ
وَحُبَّ مَنْ يُحِبُّكَ
وَالعَمَلَ الذِّي يُبَلِّغُنَا حُبَّكَ

بادِر
إلى طلبِ عفوِ اللهِ ورحمتِهِ

عن أنسِ بنِ مالكٍ رضيَ اللهُ عنه قالَ: سَمِعْتُ رسولَ اللهِ يقولُ: «قَالَ اللهُ تَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ مِنْكَ وَلا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ، يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا، ثُمَّ لَقِيْتَنِي لا تُشْرِكُ بِي شَيئًا، لأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً» رواهُ الترمذيُّ.

فالعبدُ إذا أذنبَ وسارعَ إلى التوبةِ ودعا وهو يرجو مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ المغفرةَ فإنَّهُ يُغفرُ لهُ على ما كانَ منهُ مِنَ الذنوبِ والتقصيرِ مهما كانت بالتوبةِ؛ لأنَّ التوبةَ تَجُبُّ ما قبلَها كما قالَ النبيُّ ﷺ: «التَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لا ذَنْبَ لَهُ». حديثٌ صحيحٌ رواهُ ابنُ ماجَهْ عن ابنِ مَسعُودٍ.

فمن غفرَ اللهُ لهُ حجَبَ عنهُ العقوبةَ في الدنيا والآخرةِ، وهذا معنى قولِهِ «يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ مِنْكَ وَلا أُبَالِي».

أما قوله: «يَا ابْنَ آدَمَ لَو بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ» من كثرتِها وتراكمِها «ثُمَّ استَغْفَرْتَنِي» أي طلبتَ مني المغفرةَ «غَفَرْتُ لَكَ» سواءٌ قلتَ: «أستغفرُ اللهَ» أو قلتَ: «اللهُمَّ اغفِرْ لي» ونحوَ ذلكَ معَ الاستشعارِ بالحزنِ على ما صدرَ منكَ فإنَّ اللهَ يمحو الخطايا.

ثم قالَ: «يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ» معناهُ لو جاءَ ابنُ ءادمَ بِملْءِ الأرضِ خطايا «ثُمَّ لَقِيتَنِيْ» بعدَ الموتِ «لا تُشْرِكُ بِيْ شَيْئًا» بأيِّ نوعٍ مِنْ أنواعِ الشركِ، لأنَّ الإشراكَ باللهِ هُوَ أكبرُ ذنبٍ يقترفُهُ العبدُ وهو الذنبُ الذي لا يَغفرُهُ اللهُ لمنْ ماتَ عليهِ ويغفرُ ما دونَ ذلكَ لمن يشاءُ كما قالَ اللهُ تعالى في القرءانِ الكريمِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۝٤٨﴾ النساء.

مِنْ أوّلِ ما أُنزلَ على الرسولِ ﷺ أنْ يدعوَ الناسَ إلى معرفةِ اللهِ وتوحيدِهِ وتركِ عبادةِ كلِّ ما يُعبدُ مِنْ دونِ اللهِ. فأولُ وأهمُّ فرضٍ هو الإيمانُ باللهِ وبرسولِهِ أي توحيدُهُ تعالى وتجنُّبُ ما هو مِنْ أنواعِ الشركِ كلِّها. «لأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغفِرَةً» يعني بِمِلْءِ الأرضِ مغفرةً وهذا مِنْ عظيمِ رحمةِ اللهِ جلَّ جلالُهُ بعبادِهِ وإحسانِهِ لهم.

الإسلامُ أصلُهُ طلبُ المغفرةِ مِنَ اللهِ تعالى، عندما يخرجُ الكافرُ مِنَ الكفرِ الذي كانَ فيهِ فيدخلُ في الإسلامِ هذا استغفارٌ، يعني طلبَ مِنَ اللهِ تعالى أن يَمحُوَ هذا الكفرَ، أليسَ وردَ في القرءانِ الكريمِ أنَّ نوحًا عليهِ السلامُ قالَ لقومِهِ عُبّادِ الأوثانِ ﴿ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠﴾ نوح معناهُ اطلبوا الغفرانَ بالإسلامِ أي اطلبوا مغفرةَ كفرِكُم بالدخولِ في الإسلامِ فيغفرَ لكم.

فَلا بُدَّ للعبدِ أَنْ يُبادِرَ إِلَى طلبِ عفوِ اللهِ ورحمتِهِ ومغفرتِهِ مقبلًا عليهِ سبحانَهُ راجيًا غفرانَهُ

اللَّهُمَّ إِنَّا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا ظلمًا كثيرًا
وَإِنَّهُ لا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ
فَاغْفِرْ لَنَا مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ
وَارْحَمْنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ

فهرس المواضيع

قصص وحكايات...

من استجيب دعاؤهم

SAVOIR ET TOLÉRANCE
http://www.savoirettolerance.com/

